

فنون الأدب العربي

الفن القصصي

١

# المَهَامَةُ

بقلم  
الدكتور شوق ضيف



دار المعرفة

فنون الأدب المَرْبَي  
الفن التصصي

# المَقَامَة

يشترك في وضع هذه المجموعة  
بلحنة من أدباء الأقطار العربية

الطبعة الثالثة



دار المعارف بمصر



الناشر : دار المعارف مصر - ١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ



مكتبة لسان العرب

## مقدمة

فن المقامة من أهم فنون الأدب العربي ، وخاصة من حيث الغاية التي ارتبطت به ، وهي غاية التعليم وتلقين الناشئة صيغ التعبير ، وهى صيغ حلبية باللون البديع ، وزينت بزخارف السجع ، وعُنى أشد العناية بنيسبيها ومعادلاتها اللفظية ، وأبعادها ومقابلاتها الصوتية .

وبديع الزمان هو الذي مهّد الطريق وعيّنه لظهور هذا الفن ، وخلقه الحريري ، فتبين المعالم والصوّى بأوضح ما تبيّنها سلفه ، إذ كان أوسع ثقافة ، وأحكى صياغة ، وأقوى تعبيراً ، فإذا هو يصل بالفن إلى القمة التي كانت تنتظره ، وإذا مقامته تصبح المعجزة الحارقة التي لا تُسبّق ولا تُلحق على مر العصور .

وعكف عليها الطلاب والأدباء في جميع الأقاليم العربية يتدارسونها ويحفظونها ويرتّلُونها على نحو ما ترّتلُ الأناشيد الدينية . ولم تَعُقْهم عن إعجابهم بها حواجز الصناعة التي أقامها الحريري من كنایات وأمثال وألغاز أحياناً ، بل ظلوا خاسعين ، مشدوهين .

وكثُرَ من قَلَّدوا الحريري واحتذوا على مثاله ، ولكنهم كانوا دائمًا يقعون على السُّقْح من دونه ، إذ كانت أجنحتهم من الضعف بحيث لم يستطعوا أن يحلّقوا في الأفق الذي حلّق فيه ، وبذلك ظل اسمه يلمع ويتألق طوال تسعه قرون .

حتى إذا كان القرن الماضي ظهر ناصيف اليازجي بلبنان ، ونسج المقامة نسجًا فريدًا ، غير أنه لم يستطع أن يصعد إلى مرافق الحريري وإبداعه ،

لإذ لم تكن له ملكاته ولا موهبه . وكأنما كُتُب في ألواح القدر أن يظل الحريري يتيمةـ الدهر وعقربيـة الفنـ الذى لا يبارى ولا يجارى في هذا الفن .

وقد حاولت أن أصور ذلك وأفسره بادئـاً من الخطوط الأولى لصنع المقامـة ، ومنتهاـيا بالخطـوط الأخيرة . وفي أثناء هذه المحاولة رجعت إلى ما كتبـه الباحثـون المختلفـون من عـرب ومستشرقـين عن المقامـة وأصحابـها ، وبفضـلهم جميعـاً وضـعت هذا الكـتـيب . وأنا أقدمـه إلى الشـباب مؤمـلاً أن يـشـوقـهم إلى قـراءـة هذا الفـن والإـدمـان على مـراجـعة صـحـفـه عندـ أقطـابـه ، حتى يـمتـلـكـوا نـاصـيـةـ اللـغـةـ ، وـحتـىـ تـحوـلـ إـلـيـهـمـ هـذـهـ الـثـرـوـةـ الـلـفـظـيـةـ بـجـواـهـرـهـ وـعـقـودـهـ الـنـظـوـمـةـ ، درـةـ بـجـانـبـ درـةـ ، ولـفـظـةـ بـلـيـغـةـ بـجـانـبـ لـفـظـةـ بـلـيـغـةـ ، فـيـكـونـ لـهـمـ عـتـادـ لـغـوـيـ وـاسـعـ ، وـمـخـصـولـ لـفـظـيـ وـافـرـ ، بـجـانـبـ الثـقـافـةـ الـحـدـيـثـةـ والـمـخـتـوـيـاتـ الـأـدـبـيـةـ الـجـدـيـدةـ . وأـعـرـفـ بـأـنـيـ لـمـ أـكـتـبـ إـلـاـ حـلـةـ خـاطـفـةـ ، وـنـظـرـةـ طـائـرـةـ . واللهـ وـلـيـ الـهـدـىـ وـالـتـيسـيرـ .

سوق ضيف

القاهرة في أول فبراير سنة ١٩٥٤ م

## معنى المقامة

### ١

#### المعنى اللغوي

إذا رجعنا إلى الشعر الجاهلي وجدنا كلمة مقامة تستعمل بمعنىين ، فتارة تُستعمل بمعنى مجلس القبيلة أو ناديها ، على نحو ما نرى عند زهير إذ يقول :

وَفِيهِم مَقَاماتٌ حَسَانٌ وَجَرْهَا  
وَأَنْدِيَةٌ يَسْتَأْبُهَا الْقَوْلُ وَالْفَعْلُ  
وتارة تستعمل بمعنى الجماعة التي يضمها هذا المجلس أو النادى ، على نحو ما نرى عند أبي سعيد إذ يقول :

وَمَقَاماً غُلْبٌ<sup>(١)</sup> الرَّاقِبُ كَأَنَّهُمْ جِنٌّ<sup>(٢)</sup> لِدِي بَابِ الْحَصِيرِ قِيَامٌ  
فالكلمة تستعمل منذ العصر الجاهلي بمعنى المجلس أو من يكونون فيه . ونتقدم في العصر الإسلامي فنجده الكلمة تستعمل بمعنى المجلس يقوم فيه شخص بين يدي خليفة أو غيره ويتحدث واعظاً . وبذلك يدخل في معناها الحديث الذي يصاحبها . ثم نتقدم أكثر من ذلك فنجدها تستعمل بمعنى المخاضرة .

وعلى هذه الشاكلة تُعْفَى الكلمة من معنى القيام وتصبح دالة على حديث الشخص في المجلس سواء أكان قائماً أم جالساً . وبهذا المعنى استعملها بديع الزمان في المقاماة الوعظية ؛ إذ نرى أبو الفتح الإسكندرى يخطب في الناس واعظاً واعظاً بديعاً ، وراغ ذلك منه عيسى بن هشام فقال بعض السامعين :

(١) غلب : جميع أغلب وهو الغليظ الرقبة .

(٢) الحصير هنا : الملك .

«من هذا؟ فقال : غريب قد طرأ لا أعرف شخصه ، فاصبر عليه إلى آخر مقامته» .

## ٣

### معنى الاصطلاحى

وبديع الزمان هو أول من أعطى الكلمة مقامة معناها الاصطلاحى بين الأدباء ، إذ عبر بها عن مقاماته المعروفة ، وهى جميعها تصور أحاديث تُلْقَى في جماعات ، فكلمة مقامة عنده قريبة المعنى من الكلمة حديث . وهو عادة يصوغ هذا الحديث في شكل قصص قضيرة يتائق في ألفاظها وأساليبها ، ويتحذل لقصصه جمِيعاً راوياً واحداً هو عيسى بن هشام ، كما يتحذل لها بطلاً وحداً هو أبو الفتح الإسكندرى الذي يظهر في شكل أديب شحاذ ، لا يزال يروع الناس بعواقبه بينهم وما يجرى على لسانه من فصاحة في أثناء مخاطباتهم .

وليس في القصة عُقدَّة ولا حِسْكَة ، وأكبر الظن أن بديع الزمان لم يُعن بشئٍ من ذلك ، فلم يكن يريد أن يؤلف قِصَصاً ، إنما كان يريد أن يسوق أحاديث لطلاليمه تعلمهم أساليب اللغة العربية وتقطفهم على ألفاظها المختارة .

فالمقامة أريد بها التعليم منذ أول الأمر ، ولعله من أجل ذلك سمىها بديع الزمان مقامة ، ولم يسمها قصة ولا حكاية ، فهي ليست أكثر من حديث قصير ، وكل ما في الأمر أن بديع الزمان حاول أن يجعله مشوّقاً فأجراه في شكل قصصي .

وعمى على كثير من الباحثين في عصرنا ، فظنواها ضرباً من القصص ، وقارنوا بينها وبين القصة الحديثة ، ووجدوا فيها نقصاً كثيراً . وهذا حَمْلٌ

لعمل بدبيع الزمان على معنى لم يقصد إليه ، فكل الذي قصدته أن يوضع تحت أعين تلاميذه مجاميع من أساليب اللغة العربية المنسقة ، كى يقتدوا على صناعتها ، حتى يتبع لهم أن يتفوقوا في كتاباتهم الأدبية .

ووضع ذلك في صورة قصصية ، يكون فيها حوار محدود ، ويكون فيها ما يشوق ويجذب الناشئة للاطلاع على ما يؤلفه ويصوغه . واختار البطل أدبياً شحاذًا ليتم له التشويق .

## ٣

### خصائص وصفات

ليست المقدمة إذن قصة وإنما هي حديث أدبي بلغ ، وهي أدنى إلى الحيلة منها إلى القصة ، فليس فيها من القصة إلا ظاهرٌ فقط ، أما هي في حقيقتها فحيلة يُطرفنا بها بدبيع الزمان وغيره لانطلاق من جهة على حادثة معينة ، ومن جهة ثانية على أساليب أنيقة ممتازة . بل إن الحادثة التي تحدث للبطل لا أهمية لها ، إذ ليست هي الغاية ، إنما الغاية التعليم والأسلوب الذي تُعرض به الحادثة . ومن هنا جاءت غلبة اللفظ على المعنى في المقدمة ، فالمعنى ليس شيئاً مذكوراً ، إنما هو خيط ضئيل تُنشرُ عليه الغاية التعليمية .

ولعل ذلك ما جعل المقدمة منذ ابتكرها بدبيع الزمان تتحو نحو بлагة اللفظ وحبّ اللغة لذاتها فالجواهر فيها ليس أساساً . وإنما الأساس العرَض الخارجي والخلية اللفظية . وكان لذلك وجهاً من التفع فإن الأدباء انساقوا إلى البروة اللفظية ، وأخذوا يبتكرون صوراً جديدة للتعبير ولكن في حدود سطحية .

وكأنما ألمحوا عقوتهم وأطلقوا ألسنتهم ، فلم يتوجهوا بالمقامة إلى وصف حوادث النفس وحركاتها ، ولا إلى الإفساح للعقل كي يعبر عن العواطف ويحملها ، وإنما اتجهوا بها إلى ناحية لفظية صرفة ؛ إذ كان اللفظ فتنـة القوم ، وكان السجع كلـ ما لفتهم من جمال في اللغة وأساليبها ، وكانت ألوان البديع كلـ ما راعهم منها ومن أسرارها .

وتقدـمـ بـدـيـعـ الزـمـانـ في مـقـامـتـهـ فأـقـامـ لهمـ مـعـارـضـ منـسـقـةـ منـ ذـلـكـ ،ـ وـتـبـعـهـ الحـرـيرـىـ ،ـ وـتوـسـعـ مـنـ خـلـفـوهـاـ بـالـمـقـامـةـ فـأـجـرـوـهـاـ لـاـ فـيـ تـعـلـيمـ الـأـسـالـيـبـ الـأـنـيـقـةـ حـسـبـ ،ـ بلـ أـيـضـاـ فـيـ مـخـلـفـ الشـئـونـ الـشـفـافـيـةـ .ـ فـحـمـلـوـهـاـ نـسـحـبـ وـفـقـهـاـ وـطـبـاـ ،ـ وـوـضـعـواـ فـيـهاـ مـنـاظـرـ خـيـالـيـةـ ،ـ كـمـاـ وـضـعـواـ بـهـاـ أـحـيـانـاـ جـوـانـبـ مـنـ مـجـتمـعـاتـهـمـ ؛ـ وـلـكـنـهـمـ لـمـ يـفـكـرـوـنـ عـنـهـاـ أـبـدـاـ قـيـودـ الـلـفـظـ وـأـسـجـاعـهـ ،ـ وـمـاـ رـسـفـتـ فـيـهـ مـنـ أـغـلـالـ الـبـدـيـعـ وـأـنـقـالـ الـلـغـةـ وـأـلـفـاظـهـ الـعـوـيـصـةـ ،ـ بـلـ كـانـ ذـلـكـ مـقـيـاسـ الـمـهـارـةـ وـالـبـرـاعـةـ .ـ

## ٤

## في الآداب العالمية

عـرـفـتـ المـقـامـةـ مـنـذـ وـقـتـ مـبـكـرـ فـيـ الـأـوسـاطـ الـفـارـسـيـةـ ،ـ فـقـدـ أـلـفـ القـاضـيـ حـمـيدـ الدـيـنـ أـبـوـ بـكـرـ بنـ عـمـرـ الـبـلـخـيـ ثـلـاثـةـ وـعـشـرـ يـاءـ مـقـامـةـ عـلـىـ نـسـقـ مـقـامـاتـ الـحـرـيرـىـ وـأـنـهـاـ سـنـةـ ٥٥١ـ هـ .ـ وـكـذـلـكـ عـرـفـتـ فـيـ الـأـوسـاطـ الـيـهـوـدـيـةـ وـالـمـسـيـحـيـةـ الـشـرـقـيـةـ ،ـ فـرـجـمـوـهـاـ وـصـاغـوـهـاـ عـلـىـ مـثـالـهـاـ بـالـلـغـتـيـنـ الـعـبـرـيـةـ وـالـسـرـيـانـيـةـ .ـ

أـمـاـ فـيـ أـورـباـ فـنـحنـ نـعـرـفـ أـنـ عـنـاصـرـ كـثـيرـةـ مـنـ الـقـصـصـ الـعـرـبـيـ تـغـلـغـلتـ هـنـاكـ مـنـذـ أـوـاـخـرـ الـعـصـرـ الـوـسـيـطـ وـأـنـاءـ الـعـصـرـ الـحـدـيـثـ ،ـ وـخـاصـةـ مـاـ كـانـ

موضوعه الرحلات وعجائب المخلوقات . وفي كل يوم يُظهر الباحثون في عصرنا أن الروح العربي والشرقى على العموم وجد له هناك منافذ وأبواباً كثيرة لا في الآثار الممتازة حسب ، بل في القصص الشعبى أيضاً .

ومنذ العصور الوسطى والاختلاط قائم بين الشرق والغرب ، بل إنه يتعمق التاريخ منذ عصوره الأولى ، ومن أجل ذلك يكون الزعم بأن المقامات العربية وجدت طريقها إلى الآداب الأوروبية ليس زعمًا فائلاً ، بحكم أنها جزء من الحركة الأدبية العربية ، وبحكم أنها جزء من هذه المادة الكبيرة التي نُقلت عن العرب إلى أوروبا ، فتفاعلـت معها ، وأحدثـت نهضتها .

وقد كان الاتصال بالآداب الشرقية عربية وفارسية من بدْع الحركة الرومانسية كما هو معروف عن فيكتور هيجو في فرنسا وجوته في ألمانيا وبيرون وسكوت في إنجلترا . وإذا رجعنا إلى مقامات الحريري وجدنا المستشرقين يُعنون بها ، فترجم نماذج منها إلى اللاتينية ، وتُترجمَ إلى الألمانية والإنجليزية . وهذا معناه أنها وضعت تحت أعين القوم ليقرءوها ويتأثرـوا بها .

على أنه ينبغي أن نلاحظ أن تأثيرـها كان محدودًّا ، وخاصة إذا وزنا بينها وبين ألف ليلة وليلة مثلاً ، لأن الأخيرة ذات موضوع قصصي واضح ، والمذاك أقبل عليها الأوربيون وتأثـروا بها تأثيرًّا واسعًّا ، وخاصة من نواحيها الحرافية الخيالية . أما المقامات فـن الصعب أن نتبين أثرـها ؛ لأن القصة ليست عمادـها ، إنما عمادـها الأسلوب وما يحملـ من زخارف السجع والبدـيع . ومع ذلك يمكن أن نرى أثرـها في بعض القصص الإسباني الذي يصف لنا حـياة المشردين والشحاذين . ولعل من الطريف أن هـذا القصص عندـهم بطلاً يسمـى بيـكارون (Picaroon) وهو يشبهـ من بعض الوجوه أبا الفتح الإسكندرـي عندـ بدـيع الزـمان ، وأبا زـيد السـرجـي عندـ الحرـيري .

وليس معنى ذلك أن المقامات أثرت تأثيراً واسعاً في الآداب الأوربية ، فقد كان تأثيرها ، ولا يزال ، ضعيفاً ، لأنها لا تقوم على سند حقيقي من القصص ، فلم تتعمق آداب القوم ولم تنفذ إلى أعماهم كما نفذت ألف ليلة وليلة .

## نشأة المقاومة

### عند بديع الزمان

#### ١

### بديع الزمان

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى الملقب بلقب بديع الزمان ، ولد في همدان ، وهي مدينة جبلية في إيران سنة ٣٥٨ للهجرة . وفي رسائله المطبوعة دلالات مختلفة على أنه من أسرة عربية كريمة استوطنت هناك . وزراه يقول في أول رسالة له متاطفًا إلى مَنْ راسلها : « إني عبد الشيخ ، واسمي أحمد ، وهمدان المولد ، وتغلب المورد ، ومُضْرِّي المَحْتِد ». فهو ليس فارسياً كما قد يُظَنَّ ، وإنما هو عربيٌ مُضَرِّي تغلبيًّا .

وأخذه أبوه بالتعليم والتشقيق ، فاختطف إلى دروس العلماء والأدباء في بلادته ، وتلقن على أيديهم ما شحذ به عقله من دروس دينية ، وأخرى لغوية وأدبية : وأهمُّ أساتذته الذين خرجوا أبو الحسن أحمد بن فارس ، صاحب كتاب المُجْمَل ، وبينهما مراسلات ، وزراه يقول له في إحدى رسائله :

لَا تَلْمِسْتِي عَلَى رِكَاكَةِ عَقْلِيْ أَنْ تَيقَنَتْ أَنِّي هَمَدَانِيْ  
وما زال يختلف إلى حلقات هذا الأستاذ المشهور وغيره ، حتى أتمَ  
دروسه ، وأكمل تحصيله من اللغة والشعر والنثر .  
ولا يصل إلى السنة الثانية والعشرين من عمره حتى يفكر في الرحلة عن  
بلادته ، وفي وصفه لها بقوله :

هَمَذَانُ لِي بَلْدُ أَقُول بِفَضْلِهِ لَكَنَهُ مِنْ أَقْبَحِ الْبَلْدَانِ  
صَبِيَّانُهُ فِي الْقُبْحِ مُشَلْ شَيْوَخِهِ وَشَيْوَخِهِ فِي الْعُقْلِ كَالْصَّبِيَّانِ  
ما يَدْلِي عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَعْجِبًا بِهَا . فَوْلَى وَجْهَهُ عَنْهَا ، وَقَصَدَ إِلَى  
حَضْرَةِ الصَّاحِبِ بْنِ عَبَادِ الرَّئِيْسِ ، وَكَانَ اسْمُهُ طَبَقَ الْأَفَاقَ ، لَا لِأَنَّهُ  
وَزِيرُ الْبَوَيْهِينَ الْأَوَّلُ حَسْبٌ ، بَلْ لِأَنَّهُ أَكْرَمَ قُصَادَهُ مِنَ الشَّعْرَاءِ وَالْأَدْبَاعِ  
وَأَجْزَلَ لَهُمُ الْعَطَاءِ .

وَنَزَلَ بِلَدِيْعُ الزَّمَانِ بِسَاحَتِهِ ، وَمَدْحَهُ بِبَعْضِ شِعْرِهِ ، وَأَعْجَبَ بِهِ  
الصَّاحِبُ لِفَصَاحَتِهِ ، وَقَرَبَهُ مِنْهُ ، وَأَحْضَرَهُ مَحَالِسَهُ ، وَرَأَى فِيهِ مُحَايِلَ ذَكَاءِ  
شَدِيدٍ ، إِذَا كَانَ يَتَرَجَّمُ مَا يَقْرَرُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَبْيَاتِ الْفَارَسِيَّةِ بِالْأَبْيَاتِ  
الْعَرَبِيَّةِ ، فَيَجْمِعُ بَيْنَ الْإِبْدَاعِ وَالْإِسْرَاعِ . وَنَرَاهُ يَرْكِمُ إِلَى جَرْجَانَ حِيثُ ظَلَّ  
حِقْبَةً فِي رَعَايَةِ أَبْنَى سَعِيدِ مُحَمَّدِ بْنِ مُنْصُورٍ . وَيُظَهِّرُ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ هُنَاكَ  
أَوْغَرُوا صَدَرَهُ عَلَيْهِ ، فَيَسْمَّى خَرَاسَانَ ، وَاتَّجَهَ إِلَى نِيَسَابُورَ .

وَفِي طَرِيقِهِ إِلَيْهَا خَرَجَ عَلَيْهِ لِصَوْصِ ، فَسَلَبَهُ كُلُّ مَا مَعَهُ ، وَصَوَرَ نَهْبِهِمْ  
لَهُ فِي بَعْضِ رِسَالَتِهِ ، إِذَا يَقُولُ مِنْ رِسَالَتِهِ : « كَتَبْنِي وَأَنَا أَحْمَدُ اللَّهَ إِلَى الشَّيْخِ ،  
وَأَذْمَمُ الدَّهَرَ ، فَمَا تَرَكَ لِي فَضْلَةً إِلَّا فَضَّلَهَا<sup>(١)</sup> ، وَلَا ذَهَبَ إِلَّا ذَهَبَ بِهِ ،  
وَلَا عَسَارًا إِلَّا عَسَّارَه<sup>(٢)</sup> ، وَلَا ضَيْعَةً إِلَّا أَضَاعُهَا ، وَلَا مَالًا إِلَّا مَالَ إِلَيْهِ ،  
وَلَا حَالًا إِلَّا حَالَ عَلَيْهِ ، وَلَا فَرْسًا إِلَّا افْتَرَسَهُ ، وَلَا سَبَدًا<sup>(٣)</sup> إِلَّا اسْتَبَدَّ بِهِ ،  
وَلَا لَسَبَدًا<sup>(٤)</sup> إِلَّا لَسَبَدَ فِيهِ ، وَلَا بَزَّةً<sup>(٥)</sup> إِلَّا بَزَّهَا ، وَلَا عَارِيَةً<sup>(٦)</sup> إِلَّا ارْتَجَعَهَا ،  
وَلَا وَدِيعَةً<sup>(٧)</sup> إِلَّا انْتَزَعَهَا ، وَلَا خَلِيلَةً<sup>(٨)</sup> إِلَّا خَلَعَهَا . وَأَنَا دَاخِلٌ<sup>(٩)</sup> نِيَسَابُورَ ، وَلَا حَلِيمَةً  
إِلَّا بَحْلَدَةً ، وَلَا بُرْدَةً<sup>(١٠)</sup> إِلَّا الْقَشْرَةَ » .

(١) فَضَّلَهَا : أَخْذَهَا وَبَدَدَهَا . (٢) عَقَرَهَا : أَسْتَوَى عَلَى . (٣) السَّبَدُ : الثُّوبُ .

(٤) الْبَلْدُ : الصَّوْفُ وَمِثْلُهُ : مَا لَهُ سَبَدٌ وَلَا بَلْدٌ ، أَى لَا قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ .

(٥) الْبَزَّةُ : الشَّيْبُ .

ونزل نيسابور ويقول التعاليّي : إنَّه أَلْقَى عصاًه بِهَا سَنَةَ ٣٨٢ للهُجُرَةِ ، وَفِيهَا نَاظَرَ أَبَا بَكْرَ الْخَوَازِمِيَّ كَبِيرَ أَدْبَاءِ الْعَصْرِ وَمَعْلِمِهِ ، وَانْتَصَرَ عَلَيْهِ فِي مَنَاظِرِهِ ، فَطَارَتْ شَهْرَتِهِ . وَأَلْفَ حِينَئِذٍ مَقَامَهُ وَأَلْقَاهَا عَلَى التَّلَامِيدِ ، فَأَعْجَبُوهَا بِهَا إِعْجَابًا شَدِيدًا .

ويظهر أنَّه اتَّصل بِرَؤْسَاءِ هَذِهِ الْبَلْدَةِ مِنْ بَنِي مِيكَالَ ، وَأَنَّهُمْ تَابُوا عَلَيْهِ كَثِيرًا مِنْ بَرِّهِمْ وَفَضَلَّهِمْ ، وَمَا زَالَ مَرْمُوقًا بِأَعْيُنِهِمْ حَتَّى نَفَرُوا مِنْهُمْ . وَفِي رَسَائِلِهِ وَسَالَتَانَ تَوْضِحَانَ هَذِهِ النَّفَرَةِ . وَهَكَذَا لَمْ يَمْكُثْ بِنِيَّسَابُورَ أَكْثَرَ مِنْ عَامٍ وَاحِدٍ ، فَقَدْ فَارَقَهَا سَنَةَ ٣٨٣ وَمَضَى عَلَى غُلَوَانِهِ فِي الْأَغْرِبَابِ يَرْجِلُ مِنْ بَلْدَ إِلَى بَلْدٍ فِي خَرَاسَانَ ، حَتَّى إِذَا نَشَبَتِ الْحَرَبُ بَيْنَ السَّامَانِيِّينَ أَصْحَابُ السُّلْطَانِ بِهَا وَالْغَزَنْوِيِّينَ رَأَيْنَاهُ يَرْكُحُهَا إِلَى سَجَستانَ ، وَهِيَ لَوْيَةٌ كَانَتْ بِأَقْصَى الشَّرْقِ مِنْ إِلَيْرَانَ .

وَخَرَجَ عَلَيْهِ فِي طَرِيقِهِ لِصَوْصَنِ مِنَ الْأَتْرَاكِ سَلْبَوْهُ مَا مَعَهُ ، وَشَكَا مِنْهُمْ فِي بَعْضِ رَسَائِلِهِ ، وَاسْتَسِرَ حَتَّى نَزَلَ عِنْدَ أَمِيرِ سِجَستانَ خَلِيفَ بْنَ أَحْمَدَ (٣٤٤ - ٣٩٩ هـ) وَهُوَ — كَمَا يَبْلُو مِنْ وَصْفِ بَدِيعِ الزَّمَانِ لَهُ فِي رَسَائِلِهِ — شَخْصِيَّةٌ مُهَنَّدَةٌ ، إِذَا كَانَ أَدِيبًا ، وَكَانَ مُثْقَفًا . وَقَدْ أَلْفَ فِيهِ سَتَّ مَقَامَاتٍ أَضَافَهَا إِلَى مَقَامَاتِهِ مُلْحَّهَةً فِيهَا وَنُوَّهَ بِفَضْلِهِ وَكَرْمِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَلْبِثْ أَنْ نَفَرْ مِنْهُ . وَرَبِّما شَعَرَ عَنْهُ بِشَيْءٍ مِنَ التَّهَاوُنِ لَا يُرْضِاهُ ، فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الذهابِ إِلَى هَرَّاءَ بِأَفْغَانِسْتَانِ .

وَكَانَتْ هَرَّاءَ تَابِعَةً لِلدوَلَةِ الغَزَنْوِيَّةِ الَّتِي ظَهَرَتْ حِينَئِذٍ ، وَرَبِّما كَانَ بَدِيعُ الزَّمَانَ يَرِيدُ أَنْ يَتَّصِلَّ بِالسُّلْطَانِ حَمْودَ الغَزَنْوِيِّ صَاحِبِ الْفَتوْحِ الْكَبِيرَةِ فِي الْهَندِ وَفِي إِلَيْرَانَ ، وَأَنْ يَصْبِحَ مِنْ حَاشِيَتِهِ أَوْ مِنْ كُتُبَّاهُ . وَيَقُولُ التعاليّي : إِنَّهُ قَدَمَ عَلَيْهِ ، وَيَرْوِي لَهُ قَصِيْدَةً فِي مَدِيْكَهِ يَقُولُ فِيهَا :

أَفْرِيدُونُ فِي التَّاجِ      أُمُّ الْإِسْكَنْدَرِ الثَّانِي  
أُمُّ الرَّجْعَةِ قَدْ عَادَتْ      إِلَيْنَا      بِسْلِيمَانٍ

غير أنه لم يلزم حضرته ، بل عاد إلى هرة على كثرة شکواه منها في رسائله . وربما كان السبب في أنه لزمهها ، ولم يفارقها ، أنه أصهر فيها إلى رجل يسمى الخشناني . وأنجب أولاداً واقتني ضياعاً . وبين رسائله رسائل مختلفة كتب بها إلى والده يذكر له فيها أن له بهرة عقاراً ومزارع ، ويطلب منه أن يرحل إليها هو وإخوته وعمه .

وكل ذلك يدل على أنه عاش في أواخر حياته عيشة ثرية ، بل عيشة كريمة وقد أصبح كعبة القصّاد ، يقصدون إليه ليشعف لهم عند الأماء ، يقول : « وهؤلاء الصدور يرون أن الشمس من قبل تدور » . على أن الدائرة لم تثبت أن دارت عليه ، فلبي نداء ربّه وهو لا يزال في الأربعين من عمره ، إذ توفى

سنة ٣٩٨ هـ .

\* \* \*

٢

### تأليف بديع الزمان مقامته

ألف بديع الزمان مقامته في أثناء نزوله بنيسابور ، ويقال إنه كان يختبئ دروسه على الطلاب ، ولا نعرف شيئاً عما كان يلقىهم عليهم من دروس ومحاضرات ، وأكبر الظن أنه كان يحاضرهم في مسائل لغوية ونصوص أدبية . ونظن ظناً أنه كان يعرض عليهم أحاديث ابن دريد الأربعين التي اتجه بها إلى غاية تعلم الناشئة أساليب العرب ولغتهم .

ولأنما نربط بين دروسه وبين أحاديث ابن دريد، لأنها هي التي ألمته مقامته ، يقول الحُصْرِي: إنه « لما رأى أبا بكر محمد بن الحسين بن دريد الأَزْدِي أَغْرِبَ بِأَرْبَعينَ حَدِيشَا ، وَذَكَرَ أَنَّهُ اسْتَبْطَطَهَا مِنْ يَنَابِيعِ صَدْرِهِ ، وَانْتَخَبَهَا مِنْ مَعَادِنِ فَكْرِهِ ، وَأَبْدَاهَا لِلْأَبْصَارِ وَالْبَصَائِرِ ، وَأَهْدَاهَا إِلَى الْأَفْكَارِ وَالضَّمَائِرِ ، فِي مَعَارِضِ عَجَسَمَيَّةٍ ، وَأَنْفَاظِ حُوشَيَّةٍ . . . عَارَضَهُ بِأَرْبَعَمَائِةِ مَقَامَةٍ فِي الْكُدُّيَّةِ ، تَذَوَّبَ ظَرْفَهُ ، وَتَقْطَرَ حَسْنَاهُ ». .

وقد رأينا في غير هذا الموضع أنَّ كلمة مقامة معناها حديث ، وفي هذا ما يربط أدقَّ الربط بين العملين ، ويستطيع القاريءُ أنَّ يرى ذلك في وضوح إذا رجع إلى كتاب الأمالي لأبي على القالي ، وهو الكتاب الذي يحتفظ بأحاديث ابن دريد الأربعين .

ولا تدور هذه الأحاديث على الْكُدُّيَّةِ ، كما هو الشأن عند بديع الزمان ، ومع ذلك فالصلة بين العملين واضحة . وذلك أنَّ أحاديث ابن دريد تصاغ في شكل روایة وسند يتقدمها ، ثم هي غالباً مسجوعة ، وتمتلئ باللفظ الغريب . فهي أحاديث أُلْفَتَ لغرض تعليم الناشئة اللغة ، بالضبط كما حاول بديع الزمان في أحاديثه ، وإن كانت خفيفة رشيقه .

ويصرح الحُصْرِيَّ بأنَّ بديع الزمان أنشأ أربعمائة مقامة ، ومن قبله صرَّح بذلك الشعالي في اليتيمة ، بل صرَّح به بديع الزمان في بعض رسائله . وربما كان ذلك غلطًا من ناسخ الرسائل ، فجرَّد معارضته بديع الزمان لابن دريد في أحاديثه الأربعين يقتضي أن تكون أحاديثه أو مقاماته أربعين أيضًا .

ويظهر أنه صنع في نيسابور أربعين مقامة فقط ، ثم رأى أن يزيد عليها

مقامات أخرى بعد مبارحته لها ، فزاد ستّاً في مدح خلف بن أحمد في أثناء نزوله عنده ، كما زاد خمساً أخرى . وبذلك أصبحت المقامات نيفاً وخمسين .

على كل حال أنشأ بديع الزمان مقامته معارضة لأحاديث ابن دريد ، وإن من يقرأ الأمالي ويتعقب بديع الزمان في عمله يرى الصلة واضحة تماماً الواضح بين الصناعتين . وإن المقاومة الأساسية عنده تعدد صيغة نهاية لصفة الأسد في ذيل الأمالي ، وكذلك الشأن في المقاومة الحمدانية وما جاء بها من صفة الفرس فإنها تكميل وتميم لما جاء في الأمالي من وصف الفرس .

وكثير من الأدعية والمواعظ في المقامات يتصل اتصالاً مباشراً بما في الأمالي . ونفس الحكم والأمثال والوصايا كل ذلك نجد صوره واضحة عند بديع الزمان ، وبين مقاماته مقامة تسمى الوصية ، وأخرى تسمى الوعظية . وليس ذلك حسب ، فقد تكون الفكرة التي أدار حولها مقاماته ونقصد الكدية أو الشحادة استمدتها مباشرة من « خطبة الأعرابي » السائل في المسجد الحرام » التي رواها صاحب الأمالي عن ابن دريد . ومعنى ذلك أن الأدلة كثيرة على أن بديع الزمان تأثر ابن دريد في مقامته ، وأنه عارضه بها معارضه . على أنه ليس وحده الذي ألم بديع مقامته ، فهناك عمل آخر للجاحظ أثر فيه أثراً بليغاً ؛ إذ تحدث في بعض كتبه عن أهل الكدية حديثاً طويلاً وقصة نوادرهم . وقد احتفظ البيهقي في كتابه المحسن والمساوي ص ٦٢٢ بفصل طرريف من هذا العمل .

ونحن لا نطلع على هذا الفصل حتى نقطع بأن بديع اطلع على هذا العمل للجاحظ ، وأنه هو الذي أوحى إليه أن يُدير أغلب مقاماته على الكدية . والفصل يبدأ بمحاجرة بين شيخ من أهل الكدية وشاب منهم حديث العهد بالصناعة ، وقد سأله عن حاله ، فسبَّ الكدية وصناعتها ، فغضب الشيخ وثار

لصناعته ، وأخذ يتحدث عن شرفها وأن صاحبها في نعيم لا ينفك « فهو على بريد الدنيا ومساحة الأرض ، وخليفة ذي القرنين الذي بلغ المشرق والمغرب حيّا حلًّا ، لا يخاف البؤس ، يسير حيث شاء يأخذ أطايب كل بلدة » . ونراه يذكر له إمام صاحب الكدية بكل بلدة في موسم حصادها يأكل من طيباتها « فهو رخي الحال ، حسن الباب ، لا يغنم لأهل ولا مال ، ولا دار ، ولا عقار » . ثم يقص على الشاب أنه دخل بعض بلدان الجبل ووقف في مسجدها الأعظم وعليه فوطة قد ائترر بها ، وتعصّم بحِبْلٍ من ليف وبيده عكاز ، فنادى في الناس ، فاجتمعوا عليه فقال :

« يا قوم ! رجلٌ من أهل الشام ، ثم من بلد يقال لها المَصَيْصَة<sup>(١)</sup> من أبناء الغزاة والمرابطين في سبيل الله من أبناء الرَّاكِضة وحرسة الإسلام غزوت مع والدى أربع عشرة غزوة ، سبعاً في البحر ، وسبعاً في البر ، وغزوت مع الأرميّ . قولوا : رحم الله أبا الحسن ، ومع عمر بن عبد الله . قولوا : رحم الله أبا حفص ، وغزوت مع البطال بن الحسين ، والرزاق بن مُدرك ، وحمدان ابن أبي قطيفة . وآخر ما غزوت مع يازمان الخادم ، ودخلت قسطنطينية ، ووصلت في مسجد مسلمة بن عبد الملك ؛ منْ سمع باسمي فقد سمع ، ومنْ لم يسمع فأنا أعرفه نفسي ، أنا ابن الغزيل بن الرakan المصيصي المعروف المشهور ، في جميع الغور ، والضارب بالسيف والطاعن بالرمح ، سَدَّ من أسداد الإسلام . نازَلَ الملكَ على باب طَرسُوس ، فقتل الدراري ، وسَبَّيَ النساء ، وأخذَ لنا ابنيان ، وحملوا إلى بلاد الروم . فخرجت هاربًا على وجهي ، ومعي كُتبٌ من التجار ، فقطع علىَ ، وقد استجرت بالله ثم بكم ، فإن رأيتم أن تردوا ركناً من أركان الإسلام إلى وطنه وبلده ؟ .

---

(١) من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم .

فوالله ما أتمت الكلام حتى انهالت على الدرارهم من كل جانب ، وانصرفت ومعي أكثر من مائة درهم . فوثب إليه الشابُ وقبَّل رأسه ، وقال : أنت والله معلم الخير ، فجزاك الله عن إخوانك خيراً» .

ولا يتم هذا الفصل الطريف عند ذلك ، بل يعرض في إسهاب لحيل المُكْدِّين في استخلاص الأموال والطعام من الناس ، ويروى بعض نوادرهم . وكل من يقرأ هذا الفصل ويقرأ مقامات البديع لا يستطيع أن ينجد أثراً فيه .

ومعنى ذلك أننا نظن ظنناً أن البديع قد استوحى في عمله ما كتبه الحافظ وقصه عن أهل الكدية ، كما استوحى في عمله أيضاً ما كتبه ابن دريد من أحاديث المعروفة في كتاب الأمالي . فهو قد اطلع على العملين . ومن غير شك يعلو في التأثير فيه العمل الأول على العمل الثاني ، فابن دريد وجهه ليكتب أحاديث تعليمية أى أنه أثر فيه من جهة الشكل ، أما الحافظ فأثر فيه من جهة الموضوع ، إذ جعله يدير أحاديثه أو مقاماته على الكدية .

ولابد أن نضيف إلى عمل الحافظ عملاً آخر لا يقل أهمية عن عمله ، بل قد يتفقده ، وهو بروز هذه الطائفة من أصحاب الكدية في عصر البديع ، وكانتوا يعرفون حينئذ بالساسانيين نسبة إلى سasan ، وهو شخص من بيت ملكي قديم في فارس يقال إن أبوه حرم الملك ، ويقال إنه كان ملكاً ، واغتصب منه الملك داراً ، فهذا على وجهه مختلفاً للكدية . وهي أسطورة .

واشتهر من هذه الطائفة في عصر البديع شاعران عقد لهم الشعالي في بيتهما فضلين طوبلين ، وهما : الأحنف العكْبَرِي وأبو دُلف المزرجي . أما الأحنف فيقول عنه : «شاعر المُكْدِّين وظريفهم» ويسوق له قصيدة طويلة صور فيها صناعة الكدية ، وتحدث عن مصطلحاتها الفنية وحيث أصحابها حديثاً مفصلاً . وأما أبو دُلف فيقول فيه : «شاعر كثير الملح

والطرف ، مشحوذ المدية ، في الكُدْيَة<sup>(١)</sup> ، ختَّقَ التسعين في الإطراب والاغتراب ، وركوب الأسفار والصعاب ، وضرَب صفحه المحراب بالحراب ، في خدمة العلوم والآداب » ويروى له قصيدة عارض بها قصيدة الأحنف في حرف الكدية ومصطلحاتها .

وصلة البديع في مقاماته بهذين الشاعرين وتأثره بهما يقوم عليهما أدلة كثيرة ، فهو في المقام الأول يُجْرِي على لسان أبي الفتح بطل مقاماته هذين البيتين :

ويَحْلَكَ هَذَا الزَّمَانَ زُورُ فَلَا يَغْرِيكَ الغَرَوْرُ  
لَا تَلْتَزِمْ حَالَةً وَلَكِنْ دُورُ بِاللِّيَالِي كَمَا تَدُورُ

وهما من شعر أبي دلف الذي رواه الشعالي في يeticته . وليس هذا كل ما نجده من صلة أو تأثر فإن من يقرأ المقامرة الرُّصافية للبديع يشعر أنه نثر فيها قصيَّدتي الأحنف وأبي دلف اللتين صورا فيهما حِيل المكدين . وقد سمي إحدى مقاماته باسم المقامرة الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة ، وهي تجري على هذا النمط :

« حدثنا عيسى بن هشام قال : أَحْلَمْتُنِي دِمْشَقَ بَعْضُ أَسْفَارِي ، فَبَيْنَا  
أَنَا يَوْمًا عَلَى بَابِ دَارِي ، إِذْ طَلَعَ عَلَىٰ مِنْ بَنِي سَاسَانِ كَتَبَيَّةً » قد لَفَوا  
رُءُوسَهُمْ ، وَطَلَّمُوا بِالْمَغَرَّة<sup>(١)</sup> لِبَوْسَهُمْ ، وَتَأْبَطَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَجَرًا  
يُدْقَ بِهِ صَدْرُهُ ، وَفِيهِمْ زَعِيمٌ لَهُمْ يَقُولُ وَهُمْ يَرَاسُلُونَهُ ، وَيَدْعُونَ وَيَجَاؤُونَهُ ، فَلَمَّا  
رَأَنِي قَالَ :

أَرِيدُ مِنْكَ رَغِيفًا يَعْلَوْ خُسْوَانًا<sup>(٢)</sup> نَظِيفًا

(١) المفرا : طين أحمر يصبن به .

(٢) الخوان بضم الخاء وكسرها : المائدة قبل وضع الطعام .

أريد بـَقْلَاً قـَطـِيفـَا <sup>(٢)</sup>	أريد مـِلـِحـَى جـَرـِيشـَا <sup>(١)</sup>
أريد خـَلـَا ثـَقـِيفـَا <sup>(٤)</sup>	أريد لـَحـَمـَا غـَرـِيفـَا <sup>(٣)</sup>
أريد سـَخـَلـَا <sup>(٥)</sup> خـَرـُوفـَا	أريد جـَدـِيدـَا رـَضـِيعـَا
يـَسـَعـَشـَى إـَنـَاءـَ طـَرـِيفـَا	أريد مـَاءـَ بـَشـَلـِيجـَا
أـَقـَوـُمـَ عـَنـَهـَ نـَزـِيفـَا <sup>(٦)</sup>	أـَرـِيدـَ دـَانـَ مـُدـَامـَا
عـَلـِيـَ الـَّقـَلـُوبـَ خـَفـِيفـَا	وـَسـَاقـِيـَا مـُسـَتـَّهـَشـَا
وـَجـَبـَةـَ وـَنـَصـِيفـَا <sup>(٧)</sup>	أـَرـِيدـَ مـَنـَكـَ قـَمـِيصـَا
أـَرـِيدـَ سـَطـَلـَا وـَلـِيفـَا	أـَرـِيدـَ مـُشـَطـَّطا وـَمـَوـَسـَى
اـَكـَمـَ وـَأـَنـَتـَ مـُضـِيفـَا	يـَاحـَبـَدـَا أـَنـَا ضـَيـِيفـَا
رـَضـِيتـُ مـَنـَكـَ بـَهـَذـَا	وـَلـَمـَ أـَرـِدـَ أـَنـَا حـَيـِيفـَا <sup>(٨)</sup>

قال عيسى بن هشام : فـُنـْلـِتـَهـَ دـَرـَهـَـا ، وـَقـَلـَتـَ لـَهـَ : قـَدـَ آذـَنـَتـُ بـَالـَّدـُعـَوـَةـَ ، وـَسـَنـُعـَدـَ وـَنـَسـُعـَدـَ ، وـَنـَجـَهـَدـَ وـَنـَجـَهـَدـَ ، وـَلـَكـَ عـَلـِيـَنـَا الـَّوـَدـَعـَـا مـِنـَ بـَعـَدـَ . وـَهـَذـَا الدـَّرـَهـَ تـَذـَكـَرـَةـَ مـَعـَكـَ ، فـَخـَذـَ الـَّمـَنـَقـُودـَ ، وـَانـَظـَرـَ الـَّمـَوـَعـُودـَ ، فـَأـَخـَذـَهـَ وـَصـَارـَ إـَلـِيـَ رـَجـَلـَ آخـَرـَ ظـَنـَنـَتـَ أـَنـَّهـَ يـَلـَقـَاهـَ بـَمـَثـَلـَ مـَا لـَقـَيـَنـِيـَ ، فـَقـَالـَ :

يـَابـَنـَ فـَاضـَلـَا قـَدـَ تـَبـَدـَّى كـَائـَنـَهـَ الـَّغـُصـَنـُ قـَدـَّا

(١) الجريش من الملح : الخشن.

(٢) البقل : ما ينبت أوراقاً بلا ساق ، والقطيف : المقطوف.

(٣) التفريض : الطرى ، وهو الطازج.

(٤) الشقيق : الحامض .

(٥) السخل : ولد الصنان .

(٦) النزيت : السكران .

(٧) النصيف : العامة .

(٨) أحيف : أظلم .

فاجْلِدَهُ بِالْخُبْزِ جَلَدًا  
وَاجْعَلْنَاهُ لِلوقتِ نَقْدًا  
وَاحْتَلُّ مِنَ الْكِيسِ عَقْدًا  
إِلَى جَنَاحِكَ (٢) عَمْدًا  
قد اشْتَهَى اللَّحْمَ ضِرْسِي  
وَامْسَنْ عَلَى بَشَئِ  
أَطْلَقَ مِنَ الْيَدِ خَصْرًا (١)  
وَاضْسُمْ يَدِيكَ لِأَجْلِي

قال عيسى بن هشام : فلما فتن سمعي منه هذا الكلام علمت أن وراءه فَضْلًا ، فتبعته ، حتى صار إلى أم مثواه (٣) ، ووقفت منه بحيث لا يرى وأراه ، وأماط السادة لُشُونَهُم ، فإذا زعيمهم أبو الفتح الإسكندرى ، فنظرت إليه وقلت : ما هذه الحيلة وبحبك ؟ ! فأنشأ يقول :

هذا الزمان مَشْوُمُ (٤) كَمْ تَرَاهُ غَشَّيُومُ  
الْجَمْعُقُ فِيهِ مَلِيْعُ والعَقْلُ عَيْبُ وَلُومُ  
الْمَالُ طَيْفٌ وَلَكِنْ حَوْلُ اللَّيْلَامِ يَحُومُ

و واضح أن المقامات تعبير عن هذه الطائفة الساسانية . ووصف من بعض الوجوه لِحِيمَلْهُم ، وفيها نرى أبو الفتح الإسكندرى بطل المقامات ساسانى كبير ، وهو كذلك فى أكثر المقامات أديب شحماذ عظيم .

ولا يختلف باختلاف أن هذا البطل من خيال بديع الزمان ، فلم يسبقه باسمه أحد ، وإنما هو الذى وضعه لمقاماته . فهو يجرى في أكثرها ، وإنما نقول أكثرها ، لأن هناك مقامات لم يرد ذكره فيها مثل المقامات الغيلانية والبغدادية . وهناك مقامات لا يظهر فيها أبو الفتح إلا في آخرها كالمقامة الإبليسية . ولكن الكثرة يتضح فيها منذ أول الأمر .

(١) أطلق من اليد خصاراً : كناية عن إجاجة الغير .

(٢) اضم يدك إلى جناحك : كناية عن إدناء اليد إلى موضع النقد .

(٣) أم مثواه : صاحبة منزله .

(٤) مشوم : مشوم ، وخفف .

وكما أن شخصية أبي الفتاح بطل المقامات خيالية فكذلك شخصية الراوى عيسى بن هشام ، فهما جديعاً من صنع البديع واقراره . وهو يبدأ كل مقامة بهذه الصيغة الثابتة : « حدثني عيسى بن هشام ، قال » وهي تدل دلالة قاطعة على أنه حين حاول تأليف هذه المقامات كان في ذهنه أن يقلد طريقة الرواية بل بعبارة أدق كان في ذهنه أن يقلد طريقة ابن دريد في أحاديثه .

فابن دريد يبدأ أحاديثه دائمًا بالسند ، وفي نص المحررى السابق ما يشير إلى أن أحاديث ابن دريد من مخترعه ، ومعنى ذلك أن سندتها أيضًا من مفترض ، وكأنَّ ابن الكلبي وغيره من يسند إليهم أحاديثه ليسوا أكثر من رمز إلى سُنَّة الرواية . أما في حقيقة الأمر فلا رواية ولا راو ، وإنما هي أحاديث من عمل ابن دريد ومن نسج خياله .

وقلَّده في ذلك البديع ، ولكنه لم يُجرِ أحاديثه أو مقاماته في سند مكذوب على شاكلة الأسانيد اللغوية والتاريخية المكذوبة ، إنما أجراها في سنته الخاص الذي أنشأ لنفسه إنشاء ، واحتزره احتزاعًا .

### ٣

## الموضوع

موضوع المقام عند بديع الزمان ليس واحدًا ، حقًا أكثر المقامات موضوعها الكدية والاستجداء ؛ إذ يظهر أبوالفتح الإسكندرى في شكل أديب شحاذ يخلب الجماهير ببيانه العذب ، ويختال بهذا البيان على استخراج الدرام من جيوبهم .

وهو يتراهى بهذه الصورة في بلدان مختلفة ، واعمل هذا ما دفع بديع الزمان إلى أن يسمى المقامات بأسماء البلدان ، ومعظمها بلدان فارسية . وقد

يترك ذلك ويسمى المقامات باسم الحيوان الذى يصفه كالأسدية ، أو باسم الأكلة الى يُلُم بها أبو الفتح كالمَضِيرَة نسبة إلى أكلة المَضِيرَة . وأحياناً يسمىها باسم الموضوع الذى يعرض له كالوعظية ؛ لأنها تدور حول وعظ ، والقريضية لأنها تدور حول القريض والشعر ، والإبليسية لأنها تتصل بإبليس ، والملوكية لأنها تتصل بملك هو خلف بن أحمد ، وهكذا .

ومعنى ذلك أن بديع الزمان لم يصطلح في تسمية مقاماته على سنة واحدة . ولعل هذا نفسه يشير إلى أن موضوعاتها تختلف ، فهى كما قلنا لا تجري كلها في الكُدُّية ، بل تذهب مذاهب شتى ، تتجدد فيها الغاية ، وهى رصف العبارات الأدبية المنمقة .

وكان الشكل الفَصَصِيّ ليس هدفها ، فهى إنما تتخذه خيطاً ينسج حوله هذا الوشى من الأساليب المسجوعة . ومن هنا لم يعين البديع لنفسه فيها خطة مرسومة ، ومن ثَمَّ اختلفت الموضوعات .

ولعل أول ما يسترعي النظر من ذلك [مقاماته الست التي كتبها ليُشيد فيها بخلف بن أحمد صاحب سجستان فإنه لم يجعل موضوعها الكدية ، وإنما نحا بها نحو مدحه . في المقامات الملوكية مثلاً نجد عيسى بن هشام يلتقي بأبي الفتح ، فيسأله عن أكرم الملوك ، فيقول عيسى :

« فذكرت ملوك الشام ومَنْ بها من الكرام ، وملوك العراق ومَنْ بها من الأشراف ، وأمراء الأطراف ، وسقط الذكر ، إلى ملوك مصر ، فرويت ما رأيت ، وحدثته بعواطف ملوك اليمن ولطائف ملوك الطائف ، وختمت مدح الجملة ، بذكر سيف الدولة ، فأنشأ يقول :

يا سارياً بنجوم الليل يمدحها  
ولو رأى الشمس لم يعرف لها خطراً  
وواصفاً للسوق هبك لم تَزُرُ الـ  
بحر الخيطَ ألم تعرف له خبَرَاً ؟  
منْ أبَصَرَ الدُّرَّ لم يَسْعُدْ به حَسَجَرَاً  
وَمَنْ رأى خَلَفَّاً لم يذَكِّرَ البَشَرَاً  
المقامة

زُرْهُ تَزَرُّ ملْكًا يَعْطِي بِأَرْبَعَةٍ<sup>(١)</sup>  
أَيَامَهُ غُرَرًا وَجْهَهُ قَدَرًا وَسَيْبَهُ مَطَرًا<sup>(٢)</sup>  
ما زَلْتُ أَمْدَحُ أَقْوَامًا أَظْنَهُمُ صَفَوَ الزَّمَانِ فَكَانُوا عِنْدَ كَدَرَا

قال عيسى بن هشام : فقلت : من هذا الملك الرحيم الكريم ؟ فقال :  
كيف يكون ، مالم تَبِلُّغِهُ الظُّنُون ؟ وكيف أقول ، ما لم تقبله العقول ؟ وهي  
كان ملك يأنف <sup>(٣)</sup>الأكابر ، إن بعثت بالدرارم ، والذهب ، أيسْرَ  
ما يهَبُ ، والألْفُ ، لا يعمه إلا الخَلْفُ <sup>(٤)</sup> ، وهذا جبل الكُحْلُ قد  
أضَرَّ به المِيلُ <sup>(٥)</sup> ، فكيف لا يؤثِّر ذلك العطاء الحزيل ؟ وهل <sup>(٦)</sup>يجوز أن  
يكون ملك يرجع من البَدْلِ إلى سَرَفَه ، ومن الْخَلْقِ إلى شَرَفَه ، ومن الدين  
إلى كَلْمَفَه ، ومن الملك إلى كَنْفَه ، ومن الأصل إلى سَلَفَه ، ومن النَّسْلِ إلى  
خَلَفَه ؟ !

فليت شعرى منْ هذِي مَائِرُهُ ماذا النَّى بِلُوغِ النَّجْمِ يَسْتَظِرُ  
وهذا مدح ظاهر ، فالمقامة لم تتعرض لِكُدُّيَّة ، وإنما تعرضت لهذا المدح  
الذى يدل دلالة بَيِّنَةً على أن النَّثْرَ أَخْذَ يزاحِمَ الشِّعْرَ ، فالمهدناني فيها يصوَّغ  
المدح نَثْرًا . وكنا نعرف حتى عصر البديع أن الشِّعْرَ لسانُ المديع ، وأن  
المادحين لا يتكلمون بغيره . واليوم انقلبَ الآية ، فقد أصبحَ المدح يقال  
نَثْرًا كما يقال شِعْرًا . وبذلك انعدمت الحواجز التي كانت تفصل بين عالمي

(١) ي يريد الأربعه التي سيدركها في البيت التالي.

(٢) السبب : العطاء .

(٣) يأنفه : يضرِّبُ أنفَه ، ي يريد أن مدحه يضرِّبُ الكرماء على أنوفهم حين يعيشون بدرارمهم أى  
أَنَّه يفوقهم كرمًا .

(٤) الخلف : الفاسد ، ي يريد أنه يتلفُ الألْفُ ، أى أنه كريم جداً .

(٥) الميل : المرود يكتحل به ، يقول إن الميل على قلة ما يأخذ يضر بالجليل فكيف بكرم  
مدحه وما يؤخذ منه .

(٦) الاستفهام إنكارى أى أن كل ملك بهذه الصفات لا يستطيع أن يبلغ مبلغه .

النثر والشعر ، فالنثر يطرق موضوعات الشعر ، والشعر يطرق موضوعات النثر على نحو ما هو معروف في الشعر التعليمي .

وبجانب هذا الموضوع ، موضوع المدحع ، نجد موضوعاً آخر ، بل موضوعات أخرى ، وهي ليست من موضوعات الشعر كالموضوع السابق ، وإنما هي من موضوعات النثر ، غير أنها ليست كدية فهي لا تجري مع الموضوع العام . فن ذلك أتنا نجد مقامات تتخذ النقد الأدبي موضوعاً لها ، مثل المقامة العراقية والشعرية والقريضية . فهذه المقامات الثلاث يعرض فيها بديع الزمان لأحكام أدبية تتصل بالشعر والشعراء ، وبجانبها مقامة تسمى الحافظية ، وفيها نرى البديع يقول على لسان أبي الفتح وقد حضر مأدبة ، وعرض الحاضرون لفصاحة الحافظ ولسنته :

« يا قوم : لكل عمل رجال ، ونكل مقام مقال ، ولكل دار سكان ، ولكل زمان جاحظ ، ولو انتقدتم لبطل ما اعتقدتم . . . إن الحافظ في أحد شقى البلاغة يَقْطُف<sup>(١)</sup> ، وفي الآخر يقف ، والبالغ من لم يقصّر نظمه عن ثراه ، ولم يُزِّر كلامه بشعره ، فهل ترون للحافظ شرعاً رائعاً ؟ قلنا لا ، قال : فهلموا إلى كلامه ، فهو بعيد الإشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، منقاد لعُرْيَان الكلام يستعمله ، نَفْسُورٌ من مُعْتاصمه يُهْمِله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ؟ »

وهذا حكم أدبي دقيق على الحافظ يدل على أن البديع قرأه وفهمه ، وعرفه معرفة صحيحة ، وإن كنا لا نتفق معه فيه وفي تفاصيله ، فالحافظ لا يلام بأنه لا يقول الشعر . أما أنه يستعمل عُرْيَان الكلام وينفر من الاستعارات والكلمات العويصة ، فذلك حقه . ولعل أدبه بهذه الخصائص نفسها يفوق أدب البديع ومعاصريه . ونحن لا نستطيع بحال أن نقبل من البديع هذه الاستهانة بالحافظ على أساس أنه ليس عنده ألفاظ مصنوعة ولا كلمات غير

(١) يقطف : يسير ببطء ، يريد أنه ناثر لا شاعر .

مسموحة ، فليس هذا عنوان التفوق الأدبي ، إنما هذا أسلوب البديع ومعاصريه ، وبه كانوا يقيسون البلاغة والبلاغة .

ومن الموضوعات في مقامة البديع موضوع الوعظ الديني ، فقد كتب فيه مقامتين هما مقامة الأهوازية والمقامة الوعظية ، ويترسل في الأخيرة على هذا التحول :

«أيها الناس ! إنكم لم تُتَّرِّكوا سُدًّا ، وإن مع اليوم غداً ، وإنكم واردوا هُوَةً<sup>(١)</sup> ، فأعدُّوا لها ما استطعتم من قوَّةً ، وإن بعد المعاش معاذًا ، فأعدُّوا له زادًا ، ألا لا عذر ، فقد بُيَّنْتُ لكم المحاجَةَ ، وأخذت عليَّكم المحاجَةَ ، من السماء بالخبر ، ومن الأرض بالعِبَر ، ألا وإن الذي بدأ الخلقَ عليهما ، يحيي العظام رميمًا ، ألا وإن الدنيا دار جهاز ، وقنطرة جَوَاز ، من عبرها سَلِيم ، ومن عَمَّرها نَلَم » .

والبديع في هذا الجانب الديني نراه ضد الملحدين ، بل نراه يأخذ جانب أهل السنة ويشن حرباً شعواء على خصومهم من المعتزلة . ومقامته المارستانية تصور هذا الجانب فيه تصويراً دقيقةً؛ إذ نرى أبو الفتح الإسكندرى نازلاً في مارستان ، ويزوره عيسى بن هشام مع أبي داود العسكري المتكلم ، فسرعان ما يعرفه أبو الفتح ، ويورد على مسمعه نقداً شديداً للمعتزلة وآرائهم .

واعل في هذا كله ما يشهد بأن البديع حَسَّمَ مقامته كثيراً من الجوانب التعليمية ، وهناك مقامة تسنى المقامة العلمية ، وفيها نراه يصف لطالب العلم طريقة الصعب ، وما ينبغي أن يستعين به عليه حتى يحصل على مرامه منه ، فلا بد له من الدأب والحفظ والدرس والفهم والتحقيق والتعليق ، حتى يفتق سمعه ، وحتى يتغلغل العلم إلى صدره .

وي يكن أن نسلك في هذا الجانب التعليمي المقامة الأساسية التي جمع فيها كل ما استطاع من أوصاف للأسد ، والمقامة الحمدانية ، وهي تصف

(١) الهوة هنا : القبر .

منظراً حَدَثَ فِي حَيَاةِ سِيفِ الدُّوَلَةِ الْمُتُوفِّ سَنَةُ ٣٥٦ هـ ، وَفِيهَا يُعرَضُ عَلَيْنَا أَبُو الْفَتْحِ أَوْصَافاً مُخْتَلِفَةً لِلْفَرَسِ ، وَكَأْنَهُ يَنْشُدُ مَقْنِزاً لَغُوِيًّا فِيهِ وَفِي شِيَاطِهِ . وَنَضَعُ فِي هَذَا الاتِّجَاهِ أَيْضًا الْمَقَامَةُ الْغِيلَانِيَّةُ الَّتِي يَظْهُرُ فِيهَا الشَّاعِرُ الْأَمْوَى ذُو الرُّمَّةِ وَيَنْشُدُ بَعْضَ شِعْرِهِ :

وَالْمَقَامَتَانِ الْأَخِيرَتَانِ تَلْفَقْتَنَا إِلَى أَنَّ الْمَقَامَاتِ الْمَهْدَانِيَّةِ قَدْ تَعْرَضُ لِصُورِ مِنَ الْحَيَاةِ الْمَاضِيَّةِ ، وَمِثْلَهَا الْمَقَامَةُ الصَّيْمِرِيَّةُ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقِ الصَّيْمِرِيِّ الْمُتُوفِّ سَنَةُ ٢٧٥ لِلْهِجَرَةِ .

وَلَكِنَّ يَنْبَغِي أَنْ لَا نَفْهَمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْبَدِيعَ كَانَ يَعْنِي بِالْمَاضِي أَكْثَرَ مَا يَعْنِي بِالْحَاضِرِ ، فَقَدْ وُصَفَ فِي مَقَامَاتِهِ كَثِيرًا مِنْ وُجُوهِ الْحَيَاةِ فِي عَصْرِهِ عَلَى نَحْوِ مَا نَرَى فِي الْمَقَامَةِ الْبَغْدَادِيَّةِ وَهِيَ تَصُورُ الْحَيَاةِ فِي بَغْدَادِ عَصْرِهِ . وَقَدْ أَعْطَانَا فِي الْمَقَامَةِ النِّيَسَابُورِيَّةِ صُورَةً دَقِيقَةً لِفَسَادِ الْقَضَاءِ وَالْقَضَايَا فِي زَمْنِهِ ، إِذْ نَرَاهُ يَذَكُّرُ عَلَى لِسَانِ عِيسَى بْنِ هَشَّامٍ أَنَّهُ صَلَى الْجَمْعَةُ بِنِيَسَابُورَ ، فَلَمَّا قَضَاهَا مَرَّ بِهِ شَخْصٌ ، فَسَأَلَ عَنْهُ مِنْ بَجَانِبِهِ ، إِذْ رَأَهُ يَلْبِسُ قَلْنِسُوَّةَ الْقَضَاءِ ، فَقَالَ لَهُ :

«هَذَا سُوسٌ لا يَقْعُدُ إِلَّا فِي صُوفِ الْأَيَّتَامِ ، وَجَرَادٌ لا يَسْقُطُ إِلَّا عَلَى الزَّرْعِ الْحَرَامِ ، وَلَصٌ لا يَسْقُبُ إِلَّا خَزَانَةَ الْأَوْقَافِ» ، وَكَرْدٌ لا يُغَيِّرُ إِلَّا عَلَى الْضَّعَافِ ، وَذَئْبٌ لا يَفْتَرُ سُونَّةَ عَبَادَ اللَّهِ إِلَّا بَيْنَ الرَّكْوَعِ وَالسُّجُودِ ، وَمَحَارِبٌ لا يَسْتَهِبُ مَالَ اللَّهِ إِلَّا بَيْنَ الْعَهْوَدِ وَالشَّهَوَدِ . وَقَدْ لَبِسَ دِينِيَّتَهُ<sup>(١)</sup> وَخَلَعَ دِينِيَّتَهُ ، وَسَوَّى طَيِّلَسَانَهُ<sup>(٢)</sup> ، وَحَرَّفَ يَدَهُ وَلِسَانَهُ ، وَقَصَرَ سِبَالَهُ<sup>(٣)</sup> ، وَأَطَالَ حِبَالَهُ . . . وَبَسَّضَ لَحِيَتَهُ ، وَسَوَّدَ صَحِيفَتَهُ ، وَأَظَهَرَ وَرَعَهُ ، وَسَرَ طَسَّعَهُ» .

(١) الدِّينَةُ : قَلْنِسُوَّةُ الْقَاضِيِّ .

(٢) الطَّيِّلَسَانُ : كَسَاءٌ يُوضَعُ عَلَى الرَّأْسِ وَيُسْبَلُ عَلَى الْكَتْفَيْنِ .

(٣) السِّبَالُ : الشَّارِبُ .

وليس فوق هذا بيان لظلم قاض وطغيانه وفساد ضميره ، فهو من يأكلون أموال الناس بالباطل ، يأكل مال الوقف واليتيم ، ويضيق حق الضعيف والفقير ؛ لا يخشى إلاً ولا ذمة .

وهي صورة سيئة للقضاء في عصره : وتخلل المقامات صور مختلفة عن حياة الناس المعاصرين له وأطعمتهم وأكْسِرَتْهُمْ ، وخرمهم ودهفهم وسلوكهم ونفاقهم . وكل ذلك شاهد ناطق بأن مقامات البديع تمثل حياة المجتمع لعصره خير تمثيل .

على أن هناك مقامة ينبغي أن نقف عندها ، لأنها تعبّر عن العصر أو ما قبل العصر ، ولكن لأنها أوحى البعض للأدباء بأعمال باهرة ، وهي المقامة الإبليسية ، وهي تدور على لقاء عيسى بن هشام لإبليس في وادٍ من وديان الجن ، إذ ضلَّتْ منه إبل ، فخرج في طلبها ، وما زال يطلبها حتى حلَّ في وادٍ خَضِير ، به أنهار وأشجار وأزهار ، وشيخ جالس فسلَّمَ عليه ، وردَ السلام ، وأمره بالجلوس ، فامتثل ، وسألَه : هل تَرَوْيَ من أشعار العرب شيئاً ؟ فقال : نعم وأنشدَه لامرئ القيس ولأبيه وطيفة ، فلم يطرُب لشيءٍ من ذلك ، وعرض عليه أن ينشدَه من شعره ، فأناشدَه قصيدة بحرير .

فعجب عيسى بن هشام من انتحاله قصيدة جرير ، وبعد حوار قصير بينهما قال له إبليس : « ما أحدٌ من الشعراء إلا و معه مُعِينٌ منا ، وأنا أمللت على جرير هذه القصيدة ، وأنا الشَّيخ أبو مُرَّة » وغاب بعد هذا الكلام ، ووجد عيسى بن هشام نفسه وحيداً .

ولاريب في أن هذه المقامه الطريفه هي التي أوحى لابن شهيد في الأندلس أن يكتب رحلته المشهورة في عالم ما وراء الطبيعة ، وهي الرحلة المعروفة باسم « التوابع والزوايا » ويقصد بها الجن والشياطين إذ ترعاى له شيطان ، وقد أرْتَجَ عليه في شعر ينظمها ، فأجازه ، وتعارفا ، فطلب إليه ابن شهيد أن يلقى شياطين الشعرا والكتاب السابقين معه ، فحمله على جناحه ، ونزل به

وادي الجن ، حيث لقيهم . وكان كلما لقى شيطاناً لشاعر مشهور أنشده من شعر صاحبه ، ثم من شعره الخاص ، فيعجب به ، ويحيزه اعترافاً بمهارته الفنية وقدرته البلاغية . ولقى شياطين الكتاب كما لقى شياطين الشعراء وعرض عليهم بعض رسائله ، وخاصية رسالته في الحلواه . وهو يتأثر فيها المقامات المضبوطة ببديع الزمان ، ولا نلبيث أن نراه يلتقي بشيطانه المسمى زُبُنْدَة الحقب ، ويحاول أن يُسْجِّاريه في بعض أوصافه التي جاءت في المقامات . وما يزال به حتى يعلن له تفوقه وإحسانه ، ويحيزه على إبداعه وافتتاحه .

و واضح ما بين العملين من صلة شديدة ، فهما جمیعاً يدوران على لقاء شياطين الشعراء وراء عالمنا في وادي الجن . ويصرح ابن شهيد بلقاءه لشيطان بديع الزمان ، ويرسل علينا صاحبه مثلاً رفيعاً من أمثلة الفن يحتذى على مثاله . وكل ذلك يثبت إثباتاً قاطعاً أن ابن شهيد في رحلة « التوابع والزوايا » إنما عارض البديع في مقاماته الإبليسية .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن الذى ألم بأبا العلاء « رسالة الغفران » هو ابن شهيد في رحلته المذكورة ، لأنها هي الأخرى رحلة فيما وراء الطبيعة ، إلا أنها ليست في واد من وديان الجن ، وإنما هي في الجنة وعلى الصراط و يوم البعث . ولكنها على كل حال رحلة فيما وراء المشاهد المحسوس .

ويزعم آخرون أن ابن شهيد هو الذى استوحى رسالة الغفران رحلته ، ولعل في هذا الرأى الذى قدمناه ما يُبطل نزاع هؤلاء المتخاصلين ، فالمسألة تُرد إلى القرن الرابع وإلى بديع الزمان ، فهو الذى استغل أولاً فكرة شياطين الشعراء التى قرأها في كتب الأدب العربى ، واستخرج منها مقاماته الإبليسية . ثم خلفه ابن شهيد وأبو العلاء في القرن الخامس ، فألف كل منهما رحلةً فيما وراء عالمنا ، واستمد ابن شهيد مباشرةً من البديع ومقاماته ، فلم يدخل إلا تغييرات قليلة ، وتعديلات طفيفة .

## ٤

## الأسلوب

أول ما يلفت القارئ في مقامة البديع أنها وضعت في شكل حوار قصصي ، وهو حوار يمتد بين عيسى بن هشام الرواى وأبي الفتح الإسكندرى البطل ، أو الأديب المحتال الذى يعرف كيف يلعب بعقول الناس ، ويستخرج منهم الدرام عن طريق خلابته وفصاحته .

والحوار يأتى على الماش ، فالقصد الأول في مقامة البديع إنما هو الإثبات بمجاميع من الألفاظ والأساليب التي تخلب السامعين وتخترق بروعيها حجاب قلوبهم . فليس للبديع غاية قصصية بالمعنى الدقيق ، وإنما غايتها أن يصوغ ألفاظاً ، أو قل أنغاماً من الكلام ويصيغها بالألوان الفنية التي كانت معروفة في عصره .

ومن أجل ذلك اختار صيغة السجع لمقاماته ، وكانت هي الصيغة التي يعجب بها عصره ، أُعجب بها عند ابن العميد في رسائله ، كما أُعجب بها عند غيره من تلاميذه ، فكان لا بد للبديع كى ينال استحسان معاصريه من أن يعتمد اعتماداً على هذه الوسيلة ، ويستخدمها في كل ما ينتقى من مقاماته ويوشى من أحاديثه .

وهو يُظهر براعة فائقة في استخدامها ، حفظاً إنه لا يتزمهما دائماً ، واكتنه بمحنة إليها غالباً ، فالأصل عنده أن يسجع ، ولا يترك السجع إلا نادراً . وكانت تسعفه في ذلك حافظة نادرة ، وبديهية حاضرة ، وذكاء حاد ، وإحساس دقيق باللغة ومترادافاتها وأبنيتها واستعمالاتها المختلفة . فما هي إلا أن يتوجه إلى الكلام ، حتى تنهال عليه الألفاظ من كل جهة ،

كأنها السيل تقيد من كل صوب . وكان يعرف كيف يُقْيِد من هذه السيل ، فهو يضع الكلمات مواضعها في دقة وبراعة منقطعة النظير .

ومن هنا كان سجعه في جملته خفيفاً رشيقاً ، فليس فيه تكلف ، وليس فيه صعوبة ولا جفاء فهو دائماً كأنما يستمد من فيض لغوي لا ينفد . وتراء إزاء المعنى ، وكأنه الصائد الماهر الذي يحسن إلقاء شباكه على صيده ، فلا يخطئه ، بل يصييه دائماً ، ويغليط إليك كأنه يجمع نفسه جمعاً إزاء الكلمات اللغوية ، فإذا هو قد أحصاها إحصاء ، وإذا هو يجيء بما يوافقه ويريده منها وكأنه يمسك بزمامه .

فليس هناك معنى يُعْسِر على البديع التعبير عنه ، ولنست هناك كلمات تختفي منه وراء حواجز اللغة ومتبايناتها ، بل الكلمات تقبل عليه من كل جانب ليختار منها ما يريد له هواه ، وما تريده له حاسته اللغوية الدقيقة . وهذا كله يدل من جهة على محصول لغويٍّ واسع ؛ كما يدل على ذوق البديع ، يعرف كيف يختار الكلمة المناسبة ، وكيف يضعها في مواضعها ، فلا نبو ولا شذوذ ، بل دائماً دقة وضبط وإحكام في عذوبة وسلامة وتناسق وانسجام .

وهو يمسح على ذلك بروح فكاهية بدعة تتخلل مقاماته ، فتجعلها أكثر قبولاً لدى النفوس ، ويظهر أن البديع كان ينطوي على مرح في داخله ، فسكيه في مقاماته . وهو يتخد صوراً مختلفة . وقد تمضى المقاومة وكلها دعاية وفكاهة . ونحن نسوق للقارئ مقاماته « المَضَيْرِيَّة » نسبة إلى المَضَيْرَة ( وهي لحم يطبخ بالبن المضير أى الحامض ) ليطلع منها على جملة خصائصه وما يطبع به أساليبه من مهارة . قال :

« حَدَّثَنَا عَيسَى بْنُ هَشَام ، قَالَ : كُنْتُ بِالْبَصَرَةِ وَمَعِي أَبُو الْفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ رَجُلٌ الْفَصَاحَةُ يَدْعُوهَا فَتَجْبِيهُ ، وَالْبَلَاغَةُ يَأْمُرُهَا فَتَطْبِعُهُ ، وَخَضَرْنَا مَعَهُ دُعْوَةً بَعْضِ الْتَّجَارِ ، فَقَدِّمْتُ إِلَيْنَا مَضَيْرَةً ، ثُثَنَى عَلَى الْحَضَارَةِ ،

وتترجح في العضارة<sup>(١)</sup> وتوذن بالسلامة ، وتشهيد لمعاوية — رحمة الله — بالإمامية<sup>(٢)</sup> ، في قصصها ينزل<sup>(٣)</sup> عنها الطرف ، ويوج فيها الطرف . فلما أخذت من الخوان مكانها ، ومن القلوب أوطانها ، قام أبو الفتح الإسكندرى ياعنها وصاحبها ويمقها وآكلها ، ويسلبها وطاخها ، وطنثاه يمزح فإذا الأمر بالضد ، وإذا المزاح عين الجد ، وتنحى عن الخوان ، وترك مساعدة الإخوان . ورفعناها فارتقت معها القلوب ، وسافرت خلفها العيون ، وتحلبت لها الأفواه ، وتلمّظت لها الشفاه ، واتقدت لها الأكباد ، ومضى في إثراها الفؤاد ، ولكن ساعدناه على هجرها ، وسألناه عن أمرها ، فقال : قصي معها أطول من مصيبتي فيها ، ولو حدثتكم بها لم آمن المَّقْتُ ، وإضاعة الوقت ، قلنا هات ، قال :

دعاني بعض التجار إلى مضيرة ، وأنا ببغداد ، ولزمي ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب الرقيم<sup>(٤)</sup> ، إلى أن أجبته إليها ، وقمنا ، فجعل طول الطريق يُشَّى على زوجته ، ويفديها بمهرجته ، ويصف حذتها في صنعتها ، وتألقها في طبئتها ، ويقول : يا مولاي لو رأيتها ، والخرفة في وسطها ، وهي تدور في الدور ، من التنور<sup>(٥)</sup> إلى القدور<sup>(٦)</sup> ، ومن القدور إلى التنور ، تسنبست بفيها النار ، وتدقق بيديها الأبرزار ، ولو رأيت الدخان وقد غبر<sup>(٧)</sup> في ذلك الوجه الجميل ، وأثر في ذلك الخد الصَّفِيل ، لرأيت منظراً تحار فيه العيون . وأنا أعيشها لأنها تعشقني ؛ ومن سعادة المرء أن يُرْزَق المساعدة من حكيميته وأن يَسْعَد بظعينته<sup>(٨)</sup> ، ولا سيما إذا كانت من طيبته ، وهي ابنة عمى لحبا<sup>(٩)</sup> ، طينتها طيني ، ومدينتها مدیني ، وعمومتها عمومي ، وأرمتها<sup>(١٠)</sup>

(١) النضارة : القصعة الكبيرة .

(٢) يشير إلى ما يروى من أن معاوية كان نهماً أكلا . (٣) ينزل : ينزلق .

(٤) أصحاب الرقيم : أهل الكهف وقصتهم مشهورة ، وفيها كلهم لا يفارقهم .

(٥) التنور : ما يحيى فيه . (٦) القدور : جمع قدر ، وهو الإناء يطبع فيه .

(٧) غير : أثر . (٨) الظعينة : الخلطة ، وهي الزوجة .

(٩) ابن العم خا : أقرب أبناء العم . (١٠) الأرومة : الأصل .

أرومى ، لكنها أُوسع من خلقتا ، وأحسن خلقتا ، وصدقَّ عنِي بصفات زوجته ، حتى انتهينا إلى محلّته<sup>(١)</sup> ، ثم قال :

يا مولاي ! ترى هذه المحلّة ! هي أشرف محلّ<sup>٢</sup> بغداد ، يتنافس الآخيار في نزولها ، ويتغيّر<sup>(٣)</sup> الكبار في حلوها ، ثم لا يسكنها غير التجار ، وإنما المربّ بالحار . وداري الواسطة<sup>(٤)</sup> من قلادتها ، والنقطة من دائرتها ، كم تقدّر يا مولاي أفق على كل دار منها ؟ قلْه تخميناً ، إن لم تعرفه يقيناً ، قلت : الكثير ، فقال : يا سبحان الله ! ما أكبر هذا الغلط ! تقول الكبير فقط ، وتتنفس الصعداء ، وقال : سبحان من يعلم الأشياء . وانتهينا إلى باب داره فقال : هذه داري كم تقدّر يا مولاي أفق على هذه الطاقة<sup>(٥)</sup> ! أفق على الله عليها فوق الطاقة ، ووراء الفاقة<sup>(٦)</sup> ، كيف ترى صنعتها وشكلها ؟ أرأيت بالله مثلها ؟ انظر إلى دقائق الصنعة فيها ، وتأمل حُسْن تعریجها ، فكأنما خطّ بالبرّكار<sup>(٧)</sup> ، وانظر إلى حدق النجّار ، في صنعة هذا الباب اتخذه من كم<sup>(٨)</sup> ، قلْ<sup>٩</sup> : ومن أين أعلم ؟ هو ساج<sup>(١٠)</sup> من قطعة واحدة لا مأروض ولا عفيف ، إذا حرّك أنّ ، وإذا نقر طنّ ، من اتخذه يا سيدى ؟ اتخاذه أبو إسحق بن محمد البصري وهو والله رجلٌ نظيف الأثواب ، بصير بصنعة الأبواب ، خفيف اليد في العمل ، لله در ذلك الرجل ، بخياني لا استعنت إلا به على مثله . وهذه الحلقة<sup>(١١)</sup> تراها اشتريتها في سوق<sup>(١٢)</sup> الطرائف من عمران الطرائف بثلاثة دنانير معزية<sup>(١٣)</sup> كم فيها يا سيدى من الشّبه<sup>(١٤)</sup> ! فيها ستة أرطال ، وهي تدور بلواب في الباب بالله

(١) الحلقة : الحلّى .

(٢) يتغيّر الكبار : يفار بعضهم من بعض .

(٣) الواسطة : الجوهرة الكبيرة في العقد . (٤) الطاقة : الشباك . (٥) يريد أنه أفق عليها ما جر عليه الفقر والفاقة .

(٦) البرّكار (البرجل) : آلة لرسم الدواوين والأقواس . (٧) يريد : من كم لوح أو قطعة . (٨) الساج : شجر جيد .

(٩) يريد حلقة الباب . (١٠) سوق الطرائف : سوق كانت يبغداد تباع فيها التفافيس .

(١١) معزية : كاملة ، وبذلك اشتهرت دنانير المعز بانه الفاطمي صاحب مصر ، إذ كانت أنقل من غيرها في الوزن . (١٢) الشّبه : النحاس .

دَوْرُهَا ، ثُمَّ انْقُرُهَا وَبَصْرُهَا ، وَبِحِيَاتِكَ عَلَيْكَ لَا اشْتِرِيتَ الْخَلْقَ إِلَّا مِنْهُ ، فَلَيْسَ بَيْعُ لَا الْأَعْلَاقِ<sup>(١)</sup> . ثُمَّ قَرَعَ الْبَابَ وَدَخَلَنَا الدَّهْلِيزُ ، وَقَالَ : عُمَرَكَ اللَّهُ يَا دَارُ ، وَلَا خَرَبَكَ يَا جَدَارُ ، فَإِنَّ حِيطَانَكَ ، وَأَوْثَقَ بَنِيَانَكَ ، وَأَقْوَى أَسَاسَكَ ! تَأْمَلَ بِاللَّهِ مَعَارِجَهَا<sup>(٢)</sup> ، وَتَبَيَّنَ دُواخِلَهَا وَخُوارِجَهَا ، وَسَائِنَى كَيْفَ حَصَّلَتْهَا ، وَكَمْ مِنْ حِيلَةَ احْتَلَتْهَا ، حَتَّى عَقَدَتْهَا<sup>(٣)</sup> ؟ كَانَ لِي جَارٌ يُكْنَى أَبَا سَلِيمَانَ يَسْكُنُ هَذِهِ الْخَلْمَةَ وَلِهِ مِنَ الْمَالِ مَا لَا يَسْعُهُ الْخَرَبُونَ ، وَمِنَ الصَّامِتِ<sup>(٤)</sup> مَا لَا يَحْصُرُهُ الْوَزْنُ ، مَاتَ رَحْمَهُ اللَّهُ وَخَلَفَ خَلَفَهُ أَتَلَفَهُ بَيْنَ الْحَمْرَ وَالْزَّمْرَ ، وَمَزْقَهُ بَيْنَ التَّرْدَ وَالْقَسْرِ<sup>(٥)</sup> ، وَأَشْفَقَتْ أَنْ يَسْوُقَهُ قَائِدُ الاضطْرَارِ ، إِلَى بَيْعِ الدَّارِ فَيَبِعُهَا فِي أَثْنَاءِ الضَّجَّاجِ ، أَوْ يَجْعَلُهَا عَرْضَةً لِلْخَاطِرِ ، ثُمَّ أَرَاهَا ، وَقَدْ فَاتَنِي شَرَاهَا ، فَأَنْقَطَعَ عَلَيْهَا حَسَرَاتٍ ، إِلَى يَوْمِ الْمَاتِ ، فَعَمِدَتْ إِلَى أَثْوَابِ لَا تَنْتَصِرُ<sup>(٦)</sup> تَجَارِتُهَا فَحَمِلَتْهَا إِلَيْهِ ، وَعَرَضَتْهَا عَلَيْهِ ، وَسَاعَوْتَهُ عَلَى أَنْ يَشْتَرِيهَا نَسَيَّةً<sup>(٧)</sup> ، وَالْمَدْلُودُ يُحْسَبُ النَّسَيَّةَ عَطِيَّةً ، وَالْمُخْلِفُ يَعْقِدُهَا هَدِيَّةً ، وَسَأَلَتْهُ وَثِيقَةً بِأَصْلِ الْمَالِ فَفَعَلَ وَعَقَدَهَا لِي ، ثُمَّ تَغَافَلَتْ عَنْ اقْتِضَائِهِ<sup>(٨)</sup> حَتَّى كَادَتْ حَاشِيَةُ حَالَهُ تَرَقِّ<sup>(٩)</sup> فَأَتَيْتَهُ فَاقْتَضَيْتَهُ ، وَاسْتَمْهَلْتُ فَأَنْظَرْتَهُ<sup>(١٠)</sup> ، وَالْتَّمَسْ غَيْرَهَا مِنَ الثِّيَابِ فَأَحْضَرْتَهُ ، وَسَأَلَتْهُ أَنْ يَجْعَلَ دَارَهُ ، رَهِينَةً<sup>(١١)</sup> لِدِي ، وَوَثِيقَةً فِي يَدِي ، فَفَعَلَ ثُمَّ درَجَتْهُ<sup>(١٢)</sup> بِالْمَعَالَمَاتِ إِلَى بَيْعِهَا حَتَّى حَصَلَتْ لِي بِسِيجَدَ صَاعِدٌ<sup>(١٣)</sup> ، وَبِخُسْتٍ مَسَاعِدُ ، وَقُوَّةُ سَاعِدٍ ، وَرُبُّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ ، وَأَنَا بِحَمْدِ اللَّهِ مَجْدُودٌ<sup>(١٤)</sup> ، فِي مَثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ مُحَمَّدٌ ، وَحَسِبَكَ يَا مُولَى أَنِّي كَنْتَ مِنْ لِيَالٍ فَائِمًا<sup>(١٥)</sup> فِي الْبَيْتِ مَعَ مَنْ فِيهِ إِذْ قَرَعَ عَلَيْنَا الْبَابَ ،

- (١) الْأَعْلَاقُ : النَّفَائِسُ . (٢) مَعَارِجُهَا : سَلَالِهَا . (٣) عَقَدَتْهَا : مَلِكُهَا وَاقْتَنَيْتَهَا . (٤) الصَّامِتُ : الْمَالُ مِنَ النَّحْبِ وَالنَّفَثَةِ . (٥) التَّرْدُ : لَعْبَةُ الطَّاوِلَةِ ، وَالْقَمَرُ : الْقَمَارُ . (٦) تَنْفُقُ : تَنْفُقٌ . (٧) النَّسَيَّةُ : الْبَيْعُ الْمُؤْجلُ . (٨) اقْتِضَائِهِ : مَطَالِبُهِ بِالدِّينِ وَمَقَاصِدُهِ . (٩) أَنْظَرْتَهُ : أَمْهَلْتَهُ . (١٠) درَجَهُ : خَدَعَهُ بِالْتَّدْرِيجِ . (١١) جَدُ صَاعِدٌ : حَظُّ صَاعِدٍ إِلَى السَّماءِ . (١٢) مَجْدُودٌ : مُحَظَّوْتُ .

فقلت : من الطارق المستتاب<sup>(١)</sup> ؟ فإذا امرأة معها عقد لآل ، في جلدة<sup>(٢)</sup> ماء ورقة آل<sup>(٣)</sup> ، تعرضه للبيع فأخذته منها إخنة خلس<sup>(٤)</sup> ، واشتريته بشمن ب شخص ، وسيكون له نفع ظاهر ، وربح وافر ، بعون الله تعالى ودولتك . وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جدّي في التجارة ، والسعادة تُسبّط<sup>(٥)</sup> الماء من الحجارة ، الله أكبر لا يبُشِّرك أصدق من نفسك ، ولا أقرب من أمسك ! اشتريت هذا الحصير في المناداة ، وقد أخرج من دور آل<sup>(٦)</sup> الفرات ، وقت المصادرات ، وزمن الغارات ، وكنت أطلب منه منذ الزمن الأطول فلا أجده ، والدهر حبلي ليس يُدرَى ما يسلد ، ثم اتفق أنني حضرت بباب الطاق<sup>(٧)</sup> ، وهذا يُعرَض في الأسواق ، فوزنت فيه كذلك وكذا ديناراً . تأمل بالله دقّته ولينه وصنعته ولونه فهو عظيم القدر ، لا يقع مثله إلا في الندر<sup>(٨)</sup> . وإن كنت سمعت بأبي عمران الحصيري فهو عمله والله ابن يخلقه الآن في حانوته ، لا توجد أخلاق الحصُر إلا عنده ، فبحياتي لا اشتريت الحصُر إلا من دكانه ، فالمؤمن ناصح لإخوانه ، لا سيما من تحرّم<sup>(٩)</sup> بمخواذه . ونعود إلى حديث المضيرة ، فقد حان وقت الظهيرة ، يا غلام ! الطسْتَ والماء . فقلت : الله أكبر ربما قرُب الفرج ، وسهل المخرج ، وتقدَّم الغلام ، فقال : ترى هذا الغلام ! إنه روى الأصل عراق النشء ، تقدم يا غلام واحسِر<sup>(١٠)</sup> عن رأسك ، وشَسَر عن ساقك ، وانْض<sup>(١١)</sup> عن ذراعك ، وافتَّ عن أسنانك ، وأقبل وأدبر ، ففعل الغلام ذلك ، وقال التاجر : بالله من اشتراه ؟ اشتراه والله أبو العباس ، من النَّسْخَاس .

(١) المتاب : الذي يأنّ مرة بعد مرة . (٢) يريد أن الالئ تشبه الماء في صفائها .

(٣) الآل : السراب . (٤) خلس : اختلاس . (٥) تُبْطَ : تخرج .

(٦) آل الفرات من أعيان بغداد ، تولى واحد منهم وزارة المقتدر في أوائل القرن الرابع للهجرة ، ونكبه وصادر أمواله . وإلى ذلك يشير بديع الزمان .

(٧) باب الطاق : من أبواب بغداد . (٨) الندر : الندرة . (٩) تحرّم :

أصبح له حرمة . (١٠) احسِر : اكشف . (١١) انْض : انزع ثوبك عنه .

ضع الطَّسْتُ وهات الإبريق . فوضعه الغلام وأخذه التاجر وقلبه وأدار فيه النظر ثم نَقَرَه ، فقال ، انظر إلى هذا الشَّبَّهَ كأنه جذوة اللهب ، أو قطعة من الذهب ، شَبَّهَ الشام ، وصنعة العراق ليس من خُلُقان<sup>(١)</sup> الأعلاق ، قد عرف دور الملوك ودارها<sup>(٢)</sup> ، تأمَّلْ حسنـه ، وسلني : متى اشتريته ؟ اشتريته والله عام الجماعة ، وادَّخرته هذه الساعة . يا غلام ! الإبريق ! فقدَـه ، وأخذه التاجر فقلبه ، ثم قال : وأنبوبـه منه<sup>(٣)</sup> ، لا يصلح هذا الإبريق إلا لهذا الطست ، ولا يصلح هذا الطست إلا مع هذا الدَّسْت<sup>(٤)</sup> ولا يحسن هذا الدَّسْت إلا في هذا البيت ، ولا يَجْمِعُـ هذا البيت إلا مع هذا الضيف . أرسِـل الماء يا غلام ، فقد مـحان وقت الطعام ، بالله ترى هذا الماء ما أصفاه ! أزرق كعين السُّنْسُور<sup>(٥)</sup> وصافٍ كقضيب البِلَّـور ، استُـقى من الفُـرات ، واستعمل بعد البيات ، فجاء كـلسان<sup>(٦)</sup> الشمعة ، في صفاء الدمعة ، وليس الشأن في السـقـاء<sup>(٧)</sup> ، الشـأن في الإناء ، لا يـدـلـكـ على نظافة أسبابـه ، أصدقـ من نظافة شرابـه . وهذا الدـسـتـيل سـلـتـي عن قصـته . فهو نـسـاجـ جـرـجانـ ، وعملـ أرجـانـ<sup>(٨)</sup> ، وقعـ إـلـىـ فـاشـتـريـتـهـ فـاتـخـذـتـ اـمـرـأـتـيـ بـعـضـهـ سـراـوـيـلـاـ<sup>(٩)</sup> ، واتـخـذـتـ بـعـضـهـ منـدـيـلاـ ، دـخـلـ فـيـ سـراـوـيـلـهاـ عـشـرـونـ ذـرـاعـاـ ، وـانـزـعـتـ مـنـ يـدـهـ هـذـاـ الـقـدـرـ اـنـتـزـاعـاـ ، وـأـسـلـمـتـهـ إـلـىـ الـمـطـرـزـ حـتـىـ صـنـعـهـ كـمـاـ تـرـاهـ وـطـرـزـهـ ثـمـ رـدـدـهـ مـنـ السـوقـ ، وـخـرـنـتـهـ فـيـ الصـنـدـوقـ ، وـادـدـخـرـتـهـ لـلـظـرافـ . مـنـ الـأـضـيـافـ ، لـمـ تـذـلـهـ<sup>(١٠)</sup> عـربـ الـعـامـةـ بـأـيـدـيـهـ ، وـلـاـ النـسـاءـ بـمـاـقـيـهـ ، فـلـكـلـ نـفـيـسـ يـوـمـ ،

- (١) الخلقان : البال . (٢) دارها : دار فيها . (٣) أنبوبـهـ منهـ : يـرـيدـ آنـ خـرـطـوـمـ الـنـىـ يـنـزـلـ مـنـهـ المـاءـ مـنـحـوتـ مـنـهـ ، فـلـيـسـ مـوـصـلـاـ بـهـ . وـهـذـاـ كـنـايـةـ عـنـ الـحـذـقـ فـيـ صـنـعـتـهـ . (٤) الدـسـتـ : المـجـلسـ . (٥) الـسـنـورـ : الـهـرـ . (٦) لـسـانـ الشـمـعـةـ : فـيـلـتـهـ الـمـشـتـلـةـ . (٧) يـقـولـ إـنـ صـفـاءـ المـاءـ لـاـ يـأـتـيـ مـنـ مـهـارـةـ السـاقـ ، وـإـنـماـ مـنـ صـفـاءـ الإنـاءـ . يـرـيدـ آنـ بـيـالـخـ فـيـ مـدـحـ إـنـاءـهـ . (٨) أـرجـانـ وـجـرـجانـ : مـنـ بـلـادـ إـلـرانـ . (٩) السـراـوـيـلـ : مـاـ يـلـبـسـ مـوـضـعـ الإـزارـ ، وـيـشـدـ فـيـ الوـسـطـ . (١٠) تـذـلـهـ : تـعـتـهـ .

ولكل آلة قوم ، يا غلام ! الخوان ، فقد طال الزمان ، والقصاصع ، فقد طال المصاع <sup>(١)</sup> ، والطعام ، فقد كثر الكلام . فأئى الغلام بالخوان ، وقلبه التاجر على المكان ، ونقره بالبنان ، وعجمه <sup>(٢)</sup> بالأستان ، وقال : عَسَرَ اللَّهُ بَغْدَادَ فَا أَجُودُ مِتَاعَهَا ، وَأَظْرَفَ صُنَاعَهَا . تَأْمَلْ بِاللَّهِ هَذَا الْخُوَان ! وَانْظُرْ إِلَى عَرْضِ مَسْتَنِهِ ، وَخَفَّةِ وزْنِهِ ، وَصَلَابَةِ عُودِهِ وَحْسَنِ شَكْلِهِ ، فَقَلْتُ : هَذَا الشَّكْلُ ، فِي الْأَكْلِ ، فَقَالَ : الآن ؟ عَجَلْ . يَا غَلامَ الطَّعَامَ . لَكِنَّ الْخُوَانَ قَوَائِمَهُ مِنْهُ .

قال أبو الفتح : فجاشت : نفسي ، وقلت : قد بقي المخبز وآلاته ، والمخبز وصفاته والحنطة من أين اشتريت أصلا ، وكيف اكتسرى <sup>(٣)</sup> لها حَمْسَلاً ، وفي أيِّ رحَى طَحَنْ ، وإِجَانَةً <sup>(٤)</sup> عَجَنْ ، وأيِّ تَسْنُورَ سَجَرَ <sup>(٥)</sup> وخباز استأجر ، وبقي الحطب من أين احتُطِبْ : ومني جُلْبَ ، وكيف صُفَفْ ، حتى جُفَفَ ، وحُبِيسْ ، حتى يَسِيسْ ، وبقي الْخَبَازُ ووصفه ، والتلميذ <sup>(٦)</sup> وزعنعته ، والدقيق ومدحه ، والتمير وشرحه ، والمليح وملاحة حته ، وبقيت السُّكُرَاجات <sup>(٧)</sup> من اتخدتها ، وكيف انتقدها ، ومن استعملها ، ومن عملها ، والخلل <sup>٨</sup> كيف انتقى عنْبَهُ ، واشتُرِيَ رُطْبَهُ ، وكيف صُهْرِرَ جَتَ <sup>(٩)</sup> مِعْصَرَتَهُ ، واستُخْلَصَ لُبَهُ ، وكيف قُبِرَ حَبَبَهُ <sup>(١٠)</sup> ، وكم يساوى دَنَهُ . وبقي البقل كيف احتليل له حتى قُطِفَ ، وفي أيِّ مَبْقَلَةَ <sup>(١١)</sup> رُصَفْ ، وكيف تُؤْنِقَ حتى نُظَفْ . وبقيت المضيرة كيف اشترى لحمها . ووفي شَحَمَهَا ، ونُصِبَتْ قِدْرُهَا ، وأجْجَتْ نَارَهَا ، ودُقَتْ أَبْزارَهَا ،

(١) المصاع : القتال : سمي به ما هو فيه مع صاحبه من هذه الحرب . (٢) عجمه :

اخبره . (٣) اكترى : استأجر . (٤) الإجازة : الإناء الذي يعجن فيه .

(٥) سجر التنور : ملأه وقدأ . (٦) التلميذ هنا : الصبي والتتابع .

(٧) السكريجات : صحاف صغار للكائن .

(٨) صهرجت : طليت بصبغ الصاروج . (٩) قير : طل بالقار وهو القطران .

والحب : الجرة الكبيرة . (١٠) المبللة : ما يوضع فيه البقل .

حق أجيد طَبِيبَهُ ، وعُقْدَهُ مَرَقُهَا . وهذا خطبٌ يَسْطُمُ<sup>(٢)</sup> ، وأمر لا يتمّ ، فقمت . فقال : أين ت يريد؟ فقلت : حاجةً أقضيها . فقال : يا مولاي ت يريد كَسْنِيفًا يُزْرِي بِرِبِيعِي<sup>(٣)</sup> الأمير وخربي<sup>(٤)</sup> الوزير ، قد جُصْصَصَ<sup>(٥)</sup> أعلاه ، وصَهْرَجَ أسفله ، وسُطْحَ سَقْفِهِ ، وفُرِشتَ بالمرمر أرضه ، يَزِلُّ عن حائطه الْذَّرَّ فلا يعلق ، ويَمْشِي على أرضه الذباب فيَزَلُّتَ ، عليه بابٌ غِيرَانُهُ<sup>(٦)</sup> من خَلِيلِي ساجٌ وعاج ، مزدوجين أحسن ازدواج ، يتمنى الصيف أن يأكل فيه ، فقلت : كُلْ أنت من هذا الْجِرَاب ، لم يكن الكنيف في الحساب . وخرجت نحو الباب ، وأسرعت في الذهاب ، وجعلت أعدو وهو يتبعني ويصبح : يا أبا الفتح المَضَبِرَة ! وظن الصبيان أن المصيرة لقبٌ لي ، فصاحوا صياحه ، فرميت أحدهم بحجر ، من فرط الضَّجَّيجَرَ ، فلقي رجلٌ الحجر بعمامته ، فغاصَ في هامته . فأخذتُ من النعال بما قَدَّمَ وحدَثُ ، ومن الصَّفْعِ بما طاب وخفَبَ . وحَسَبَرْتُ إلى الحبسِ ، فأقمت عاميَن في ذلك السَّجْنِ ، فَسَنَدَرْتُ أن لا آكلَ مَضَبِرَةً ما عشت . فهل أنا في ذا يا آل هَمَدان ظالم .

قال عيسى بن هشام : فقبلنا عُذْرَه ، ونذرنا نَذْرَه ، وقلنا قدِيمًا جَنَّتِ المصيرة على الأحرار ، وقدَّمت الأراذل عَلَى الأخيار » .

وهذه المقامات تعرض علينا البديع ، بكل ما أوفرَ من خفة ورشاقة لا من حيث انتخاب الألفاظ والعبارات حسب ، بل أيضًا من حيث الروح الفكاهى الذى طبع به مقاماته . فأصبحت حرية بأن تُروى في المجالس ، ويتلتفها الطلاب في الأقاليم الإسلامية المختلفة ؛ إذ يقرعون فيها ما يسرى عن نفوسهم ،

(١) عقد المرق : غلى حتى غلظ .      (٢) يطم : يعظم ويتفاقم .

(٣) ربِيعِيُ الْأَمِيرُ : ما يسكنه الوزير في الخريف .      (٤) ما يسكنه الوزير في الخريف .

(٥) جُصْصَصَ : طلى بالجلص وهو الجير .

(٦) غِيرَانُهُ : جمع غار ، أراد بها الفواصل بين أولوج الباب .

ويرسم الضحك على شفاههم .

ولم تكن نفس البديع مطوية دائمًا على الضحك والفكاهة ، فلن يتبعه في رسائله يجده أحياناً يفضي إلى ضروب من التشاوؤم . وقد يكون مرجع الحانين عنده حدة في جسده جعلته مرهف الشعور دقيقه . وهي حدة كان يراقبها ذكاء شديد وبد庖ة حاضرة ، فأعده ذلك ليُطْرُف قُرَاءَه بدعاباته وفكاهاته .

ويرى القارئ بجانب ذلك براعة البديع في استخدام السجع ، فالكلمات تتشابك بأسلاكه ، وكان صائغاً ماهرًا يُحسّن ضم جواهرها بعضها إلى بعض وتكوين عقود منها تأخذ بالأيماع والأبصار . ولا ريب في أن ذلك موهبة يختص بها ، أو قل إنه فن لم يرق إليه إلا بعد ثقافة واسعة باللغة ، وتدریب شاق على صناعة أساليبها بحيث وقف وقوفاً دقيقاً على خصائصها الصوتية .

فليس كل سجع يعجبنا ، بل السجع منه الشقيل ومنه الح悱 الذي يرق حتى لكانه يُشَيِّف عن المعنى الذي يضطرب في عقل صاحبه وقلبه . وكان بديع الزمان يعرف كيف يصوغ لفظه وكيف يعرضه ، وكيف يوقعه ، وكيف يُحدِّث فيه من التدوجات الصوتية ما يجعله يدخل على الأذن بدون استثنان كما يقولون .

و واضح أنه يستعين على ذلك بانتخاب ألفاظه ، وتقسيم سجعاته ، وكأنه كان يعرف أن تطويل السجعات من شأنه أن يطيل المسافة الزمنية للأصوات ، فلا يعطيها الرشاشة التي نحسها عنده .

سجعه إذن قصير ، قد أحکم قوله وضبط أنغامه ، ولم يكن يكتفي بذلك ، بل كان يضيف إليه تلوينات البديع المعروفة من جناس وغير جناس . واهتم خاصة بالتصوير فنسج كثيراً من الأخيلة في أساليبه .

ولعل القارئ لاحظ أن هذه المقامات تخلو من الشعر . وهذه ليست عادته المقادمة

المتبعة ، فهو يضمّن مقاماته كثيراً من الشعر ، كما يضمنها كثيراً من الأمثال وآى القرآن الكريم .

ومر بنا آنفماً أنه عاب الباحظ في مقامته الباختطافية بأنه « ينفر من معتناص الكلام وغريبه » وأنه « لا يستعمل المهمل غير المسموع » ، وقلنا إن هذا ليس عبيساً في الكاتب ، بل لو أن الباحظ كان من ذوق ناقده أو بعبارة أخرى كان من ذوق بديع الزمان لكان ذلك هو العيب فيه والنقص في بلاغته .

ومن يرجع إلى مقامة البديع يلاحظ فيها كثيراً من اللفظ الغريب ، يخشوا به أسايليه كقوله في المقامة القردية على لسان عيسى بن هشام : « بينما أنا بمدينة السلام ، قافلاً من البلد الحرام : أميسُ ميسَ الرِّجْلَةَ ، على شاطئِ الدِّجلةِ » فقد استخلص كلمة أميس يعني أتبختر ، وليس هذا ما نريد أن نقف عنده ، إنما نقف عند كلمة الرِّجْلَة فهى جمع رجل ، وهو جمع شاذ ، لم تكن هناك ضرورة لاستخدامه سوى أنه يقصد إلى ذلك قصداً . ومثل هذا قوله في المقامة الموصلىة : « فأنحذه الجُفُّ ، وملكته الأكْفَ » والجُفُّ هنا : الجمود . ومن ذلك قوله في المقامة المارستانية : « الإكراه مرة بالميرَة ، ومرة بالدَّرَّة » والميرَة هنا : العقل .

ولعل المقامة الحمدانية أكثر المقامات ألفاظاً مهملة وحوشية غير مسموعة ، فقد عُنى فيها بوصف الفرس ، وعرض فيها كل مخصوصه اللغوي في هذا الوصف وكأنه يؤلف متنناً في غريب الفرس لا مقامة أدبية .

ولا نرتاب في أن هذا عنده أثر من آثار ابن دريد في أحاديثه التي أشرنا إليها والتي يحتفظ بها كتاب الأمالي ، فهي كلها تمتليء بأوابد اللغة وshawardha المهمللة . ولعل في هذا ما يدل على أنه كان يستحضر في ذهنه دائماً صورة الأحاديث المذكورة لشيوعها بين المتعلمين في عصره .

والحق أن مقامته كلها إنما أراد بها إلى غاية تعليمية ، ولذلك حشد فيها هذه الألفاظ الغريبة ، ومع ذلك فلم يكثر منها ؛ إذ كان يأتي بها بين الحين

والحين ، وكان ما يطبع به أسلوبه من خفة ومرونة يعطي على مثل هذه الأعشاب ، فلا يجعلها تظهر للعين ولا للأذن تماماً .

ولم تكن خفته ومرونته كل ما يعطى به هذا العيب ، بل كان يعطيه أيضاً بضرب من الفكاهة مسح به على جوانب كثيرة من المقامات عنده . وكانت تسعه في ذلك بديهة حاضرة ونشاط ذهني متقد .

## مقامة الحريري

١

### الحريري

هو أبو محمد القاسم بن عليّ الحريري ، ولد لأسرة عربية سنة ٤٤٦ للهجرة بضاحية من ضواحي البصرة ، تسمى المشستان ، كثيرة التمر والرطب والفاكهه . وبها كانت ملأعيب صباحه ومسارحه . ولا شبّ تحول عنها إلى البصرة ، ونزل بجحّ فيها يسمى حيّ بني حرّام ، وأكّبَ على الدراسات الدينية والعلوم اللغوية والنحوية ، وتخرج في ذلك كله حاذقاً به ، بارعاً غاية البراعة .

وكان فيه ذكاء ولسان وفصاحة وبلاغة ، فجذب إليه الأنظار ، وطمّحت نفسه إلى وظائف الدولة ، وليس تحت أيدينا أخبار كثيرة تفسّر تقلبه في هذه الوظائف . وتلك عادة القدماء في تراجمهم للأدباء فقلما أعطونا تفاصيل حياتهم .

ونحن نرى طائفة منهم تذهب إلى أن ولد البصرة عُنى به ، وهو الذي دفعه إلى صنع مقاماته ، وتذهب طائفة ثانية إلى أن الذي عُنى به أُوشروان ابن خالد وزير الخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩) وتزعم طائفة ثالثة أن الذي عُنى به وزير آخر لنفس الخليفة يسمى ابن صدقه .

وكل ذلك إنما هو تفسير لما جاء في مقدمته للمقامات من قوله : « فأشار من إشارته حُكم ، وطاعته غُسْنم ، إلى أن أنشىء مقامات أتلو فيها تلّو البديع » ، فقالوا إنه يشير إلى أحد الثلاثة السابقين ، واختلقو فيهم .

غير أن من يرجع إلى تاريخ تأليف الحريري لمقاماته يراه قد أتتها سنة ٥٠٤ للهجرة ، ومعنى ذلك أن ما يقال من صلة ابن صدقة وأنوشنوان بتأليفيها غير صحيح ، فأنوشنوان إنما ولى وزارة المسترشد بعد وفاة الحريري ، أما ابن صدقة فوليها وهو حي سنة ٥١٢ ولكن بعد تأليفه لمقاماته بسنوات ثمان .

من أجل ذلك كنا نذهب إلى ما رواه الشّرّيشي ، شارح مقاماته الكبير ، في تعليقه على العبارة السابقة إذ روى عن بعض أساتذته أن الذي أشار إليه الحريري في مقدمته هو الخليفة المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢) وكان له حظ من الأدب وعناية بأهل العلم ، ويقال إنه أثبت في الديوان منهم أسماء ألف وخمسمائة شخص ، وأجرى عليهم الأموال والأرزاق .

فقصده الحريري ، وما زال يبعثه على صنع المقامات ، حتى أتمّها ورفعها إليه ، فبلغ عنده أسمى المراتب ، ويظهر أنه ظل بالقرب منه في بغداد حتى تُوفّى ، وخلفه المسترشد ، فاتصل بكبار رجال الدولة لعهده ، ومن هنا تأتي صلته بابن صدقة وزيره . وربما اتصل بأنوشنوان حينئذ كما اتصل بغيره من البارزين وقدّم لهم نسخاً من مقاماته ، فأشكل ذلك على من تحدّثوا عن حياته وأخباره . وأكبرظن أنه زهد في بغداد بعد وفاة سيد المستظهر ، فرجع إلى بلدته ، وعيّن صاحب الخبر بها ، وهي وظيفة تشبه وظيفة « مصلحة الاستعلامات » في عصرنا . واكتفى بهذه الوظيفة ، وذهب يُعنّي بمقاماته ومحاضراته ، فكانت له حلقة بمسجد حبيه الذي كان ينزل فيه هناك . وكان أحياناً يترك البصرة ويدّهب إلى المشان ، فيتبعه الطلاب .

ويقول الرواية إنه كان بخيلاً قبيحاً دميم الحلقة والهيئة مُبْتَلّاً يُنْتَفَعُ  
لحيته ، ويزعمون أن رجلاً طلبـه ، ليقرأ عليه مقاماته ، وسأل عن مسجده الذي  
يقرؤها فيه ، فدلـه الناس عليه ، فلما رأه بهـت ، وقال في نفسه : لعله  
ليس هو هذا ، فرجع ، ثم قال في نفسه : لعله هو ، ثم استبعد أن يكون  
الحريري هذا الشخص الدميم الذي تقتـحـمه العيون . وكل ذلك وهو يلاحظه .

وهم <sup>١</sup> الرجل بالخلوس بين يديه ، فبادره بقوله : ارْحَلْ فَأَنَا مِنْ تَطْلُبِ أَكْبَرْ  
مِنْ قَدْ حَنِّنَكْ . ويزعم الرواة أيضًا أن رجلا آخر حدث منه ذلك والحريري  
يراقبه ، فلما التمس منه أن يدل عليه شيئاً من مقاماته قال له : اكتب :  
ما أنت أول سارٍ غَرَّةَ الْقَسْمَرُ وزائرٌ أَعْجَبَتْهُ خَضْرَةَ الدَّمْ منْ  
فاختَرَ لِنَفْسِكَ غَيْرِي إِنِّي رَجُلٌ مِثْلُ الْمَعِيدَى فاسْمِعْ بِي وَلَا تَرَنِي  
فخجل الرجل منه ، وانصرف .

ومهما يكن فقد دوَّت شهرته في العالم الإسلامي ، وهو لا يزال حيًّا ،  
ويقال إنه أعطى إجازة لسبعينات طالب أن يرووا مقاماته عنه في الناس . وهو  
عدد ضخم يدل على مبلغ عناية معاصريه بعمله ، ومدى ما تمنع به من مكانة  
أدبية مرموقة في عصره .

وخلَفَ الحريري <sup>٢</sup> بجانب المقامات ديوانًا من الشعر وجموعة من الرسائل  
كما خلَفَ كتبًا في النحو واللغة ، من أشهرها كتاب « درَّةُ الغوَّاصِ فِي  
أَوْهَامِ الْخَوَاصِ » وهو مطبوع ، وفيه يتعرَّضُ لأنخطاء الأدباء وأغلاطهم في  
استعمال الألفاظ والأساليب ، وسرى في مقاماته ما يدل دلالة بينة على أنه كان  
واسع المعرفة بالمواد اللغوية .

وما زال يذيع هذه الأعمال من جهة ، وقامًا على وظيفة « صاحب الخبر »  
من جهة ثانية ، حتى توفى سنة ٥١٦ للهجرة . ولستنا ندرى أَحَيَّ أَمْ لَمْ يَحْيِ ؟  
ويغلب على ظننا أنه أدى فريضة ربِّه ، في مقاماته نزعة دينية وخلقية تدل على  
أنه كان حَفَّيَّاً بِدِينِه ، مرضيًّاً فِي سُلُوكِه وَخُلُقِه .

وكان دائمًا موسَّعًا عليه في الرزق ، ويقول الرواة إنه كان له ضياع  
واسعة في المشَـان ، ولعله من أجل ذلك كان كثير التزول بها والإقامة فيها :  
وعلى نحو ما كان سعيدًا في نفسه كان سعيدًا بأبنائه الثلاثة ، وهم : عَبْيَدُ الله  
وأَبْوَ القَاسِمِ عبدُ الله وأَبْوَ العَبَّاسِ محمدٌ . أما أَوْلَمْ فَكَانَ قاضيَ البَصَرَةَ ،  
وأمَّا الثَّانِي فَكَانَ موظفًا في ديوان بغداد . وأَمَّا الثَّالِثُ فَورثَ وظيفة أبيه ، وزار

العماد الأصفهانى البصرة سنة ٥٥٦ للهجرة ، ورأى أبناءه لا يزالون يقومون على الوظيفة نفسها . وكان الطلاب بعد وفاة الحريرى يقصدون أبناءه الثلاثة المذكورين ، ويأخذون عنهم مقامات أبيهم ، وكانوا يشرحون لهم صعوباتها اللغوية . واشتهر من بينهم في ذلك محمد ، فهو مبدأ السلسلة الطويلة من شراحها الذين نهضوا بتفسيرها وحل مشكلاتها ، من مثل الشّريشى وغيره .

## ٢

### تألیف الحریری لمقامته

يختلف الرواية في المكان الذي ألف فيه الحريرى مقامته ، فمن قائل إنه ألفها في بغداد ، ومن قائل إنه ألفها بالبصرة ، ثم أصعد إلى بغداد ، وعرضها على الأدباء هناك ، وكانت أربعين مقامة ، فاستحسنوها وتداولوها ، واتهمه بعض حسديته بأنها ليست من عمله ، وقالوا له : إن كنت صادقاً في أنها من عملك ، فلتتصنّع مقامة جديدة ، تثبت حجتك وصححة قوله .

وتزعم القصة أن الحريرى حاول ذلك أربعين يوماً ، فلم يفتح الله عليه بشيء ، فعاد إلى البصرة كثييراً أسفياً ، والناس يتحدون عنه ، ويقعون فيه ، وغاب بها حقيقة من الزمن ، ثم رجع ، وقد صنع عشر مقامات جديدة ، فحيثئذ سلّموا له واعترفوا بفضله .

وفي رأينا أن هذا كله قصص لا صلة له بالواقع ، لسبب بسيط ، وهو أن نظام تأليف المقامات عند الحريرى يدل - كما أسرى بعد قليل - أنه ألفها جملة واحدة ، ولم يقع في ذهنه أن يؤلفها أربعين مقامة ، ثم عاد فألحق بها عشرة ، بل الذي حاوله منذ أول الأمر أن يجعلها خمسين معارضة لمقامات بديع الزمان الحمسين .

ونظن ظنناً أنه ألفها في بغداد حين أظلته عنابة المستظهر كما قدمنا ، وقد اختار لها بطلًا هو أبو زيد السّرروجي ورواية هو الحارث بن همام . واتفق الرواة على أن الحارث شخصية خيالية ، أما أبو زيد فقالوا إنه شخصية حقيقة ، ونسبوا إلى الحريري أنه قال :

« كان أبو زيد السّرروجي شيخاً شحاذًا بليعنًا ومُكدياً فصيحًا ، ورد علينا البصرة ، فوقف يوماً في مسجد بنى حرّام فسلّم ، ثم سأله الناس ، وكان بعض الولاء حاضراً ، والمسجد غاضب بالفضلاء فأعجبهم فصاحت به وحسن صياغته كلامه وملحته . وذكر أسر الروم ولده كما ذكرناه في المقامات الحرامية وهي الثامنة والأربعون ( بين المقامات الخمسين ) . واجتمع عندى عشيّة ذلك اليوم جماعة من فضلاء البصرة وعلمائها ، فمحكى لهم ما شاهدت من ذلك السائل ، وسمعت من لطافة عبارته في تحصيل مراده ، وظرفه إشارته في تسهيل إيراده ، فمحكى كل واحد من جلسائه أنه شاهد من هذا السائل في مسجده مثل ما شاهدت ، وأنه سمع منه في معنى آخر فتصلاً أحسن مما سمعت . وكان يُغيّر في كل مسجد زيه وشكله ، ويُظهر في فنون الحيلة فضله ، فتعجبوا من جريانه في ميدانه ، وتصرّفه في تلونه وإحسانه ، فأنشأت المقامات الحرامية ، ثم بنيت عليها سائر المقامات ، وكانت أول شيء صنعته » .

وتأخذ هذه الرواية أو يأخذ هذا الخبر صوراً أخرى مختلفة كلها تحاول أن تثبت أن أبو زيد شخص حقيقي . ويزعم بعض الرواة أنه كان يسمى المظفر ابن سلار ، وأنه كان نحوياً بليعنًا . ولا نثبت أن نجد الكتب الخاصة ببرامج النحاة تترجم للمظفر ، وتقول إنه صاحب أبي القاسم الحريري الذي أنشأ المقامات على لسانه ، وإنه كان فيه أدب وله معرفة باللغة والنحو ، وإنهقرأ على الحريري وتخرج به ، وروى عنه أرجوزته « مُلْحَّة الإِعْرَاب » وأنه توفي ببغداد حول سنة ٥٤٠ للهجرة .

وإذن فتحن إزاء مسألة من مسائل الدّور ، فالحريري روى المقامات عن

أبي زيد ، وأبو زيد روى عنه بعض كتبه ، فهو أستاذ الحريري من طرف ، والحريري أستاذه من طرف آخر ! وقد يكون المظهر شخصية حقيقة وأنه أحد تلامذة الحريري كما تقول كتب النهاة ، أما أنه أبو زيد السرروجي فهذا هو الوهم الذي وقعوا فيه .

وليس هذا كل ما أخطئوه ، فقد أخطئوا أيضًا حين ظنوا أن أبو زيد شخص حقيقي ، وبالغوا فأضافوا ذلك إلى الحريري . وهو براءٌ مما يقولون ، إذ ليس أبو زيد عنده إلا كأبي الفتح عند البديع ، فهو من وَهْمِه وعمل مخيلةه ، ابتداعاً ليدير عليه مقاماته .

والخبر السابق الذى روى عن الحريرى ليس إلا تلخيصاً استمدوه من المقاومة  
الحرامية ، وفيها نجد الحريرى يعرض علينا أبا زيد شيئاً يستجلد الناس  
ببلاغته ، وقد ورد على البصرة ، ووقف في مسجد بنى حرام وشكا حاله ،  
وألقى قصيدة بليغة في الحاضرين ، يقول فيها :

أنا من ساكني سرُّ  
كنتُ ذا ثروة بها  
مَرْبَعِي مَالِفُ الضيyo  
ويراني المؤمّلُو  
فقضى الله أن يُغَيِّبَ  
بسَّارُ الرومَ أرضنا  
فتطوحْتُ في البلا  
أجسْنَدِي الناسَ بعدهما

ثم يقص على الناس أن ابنته سُبِّيب ، ثم يطلب إليهم العون ، فكل يبادر إلى إعطائه . وهي مغامرة كبقية مغامرات أبي زيد في المقامات ، ولكن الرواة من ذوى الخيال المحدود ظنوا ذلك حقيقة ، ولفـقـهـوـاـ الخبرـ السـابـقـ .  
ولأن من يقرأ مقامات الحريري كلها ويتعقبه فيها يعرف أنه ألفها جميعاً

عملاً واحداً . وحقاً لا يجدون الربط واضحًا بين مقامة وتاليتها ، فقد كانت وجهة الحريري كوجهة بديع الزمان ، ونقصد العناية باللفظ لا بالمعنى ، فكلها مم يكن يعنيه من بطله ومقاماته سوى عَرْض صور من الأسلوب البلغة .

غير أننا إذا فحصنا مقامات الحريري وجدناها يرتبها ويرقّها ، فتلك المقامة الأولى ، وتلك المقامة الخامسة وكل مقامة بينهما تأخذ رقمها الخاص . وهذا معناه البناء الحكم ذو الحلقات . ونراه في الحلقة الأولى أو المقامة الأولى ، وهي المقامة الصناعية ، يقوم بالتعريف بين الحارث بن همام وأبي زيد ، فالحارث قد اغترب إلى صنعاء وهناك رأى شخصاً يعظ في حلقة ، وهو ناحل ، عليه ثياب السفر ، قد أتى حظاً من البلاغة ، فهو يطبع الأسماع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجه وعشه ، فأعجب به ، وحاول التعرف عليه ، فتبعده متوارياً عنه ، حتى دخل متغارة ، وهناك رأه مع تلميذه له ، فسألته عنه ، فقال : « هذا أبو زيد السُّرُوجي ، سراح الغرباء ، وتاح الأدباء » .

وعلى هذا النحو يعرف الحريري راويته ببطله في أول مقاماته ، ثم يتنتقل به أدبياً مستجديراً في المقامات التالية ، لا يلم ببلده حتى يتركها إلى أخرى ، وكلها من بلاد العالم الإسلامي ، وهي بلاد متباعدة . وفي كل بلدة يقوم البطل بمحيله على مَنْ حوله من الناس أو الحكام والقضاة ، وفي كل مرة يعرفه الحارث بعينه ، ويكتشف أمره وسره .

ويُطرفنا الحريري دائمًا بالصورة التي يعمّي بها حقيقة أدبيه الشحاذ ، فهو دائمًا يظهره في قالب جديد تارة في هيئة مزريّة ، وتارة في هيئة حسنة ورُوَاء . وتارة يكون وحده ، وتارة مع ابنه أو تابعه أو زوجته . وكثيراً ما نراه يختال على الولاة والقضاة بدعوى مزيفه على بعض أسرته منتقلًا من صيَّد إلى صيَّد ، حاملاً بحرابه ، ومنكراً لشخصه . وقد يلبس لِبسَ الرهبان أو لبس النسوان ، وأكثر ما يكون في ثياب خلقة وأسمال . وما يزال يمد مكايده مكره وأحاديل خستله .

وكل مقامة من الأولى إلى الثامنة والأربعين هي شرّاك صغير من أشراك أبي زيد يقصه الحارث ويروى ما انزلق على لسانه فيه من أفانين كلامه . ونراه يعرضه علينا في المقامة التاسعة والأربعين ، وهي المقامة الساسانية وقد بلغ من الكبَرِ عتيقاً ، فأحضر ابنه ، وأوصاه أن يقوم على حرفه الـ *كُدْيَة* من بعده ، وبما قال له :

« يا بُنْتَيَ إِنَّهُ قَدْ دَنَّا ارْتَحَالِي مِنَ الْفَسَانِيَةِ<sup>(١)</sup> ، وَأَكْتَحَالِي بِمَرْوَدِ الْفَسَانِيَةِ ، وَأَنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَلِعَهْدِي ، وَكَبَيْشُ الْكَتَبِيَّةِ السَّاسَانِيَّةِ مِنْ بَعْدِي ، وَمِثْلُكَ لَا تُقْرِنُ لِهِ الْعَصَمَا<sup>(٢)</sup> ، وَلَا يُنْبَهَ بِطَرْقِ الْحَصَمَا ، وَلَكِنَّ قَدْ نُدِبَ<sup>(٣)</sup> إِلَى الْإِذْكَارِ ، وَجُعِلَ ضِيقَلَا لِلأَفْكَارِ . . . فَاحْفَظْ وَصِيَّتِي ، وَجَانِبْ مَعْصِيَتِي ، وَاحْذِنْ مَثَلِي ، وَافْقُهْ مَثَلِي ، فَإِنَّكَ إِنْ أَسْتَرْشَدْتَ بِنَصْحِي ، وَاسْتَصْبَحْتَ بِصُبْحِي ، أَمْرَعْ خَانِكَ<sup>(٤)</sup> ، وَارْتَفَعْ دَخَانِكَ . . . يَا بُنْتَيَ إِنِّي جَرَيْتَ حَقَائِقَ الْأَمْوَارِ ، وَبِلَامَوْتُ تَصْبَارِيفَ الدَّهُورِ ، فَرَأَيْتُ الْمَرْءَ بِنَشَبَهِ لَا بِنَسَبَهِ ، وَالْفَحْصَ عَنْ مَكْسِبِهِ لَا عَنْ حَسْبِهِ . وَكَنْتَ تَمْعِنْ أَنَّ الْمَعَايِشَ إِمَارَةً وَتِجَارَةً وَزَرَاعَةً وَصَنْاعَةً ، فَهَارَسْتُ هَذِهِ الْأَرْبَعَ ، لَا نَظَرَ أَيْهَا أَوْقَى وَأَنْفعَ ، فَأَحْمَدْتُ مِنْهَا مَعِيشَةً ، وَلَا اسْتَرْغَدْتُ فِيهَا عِيشَةً » .

واستمر يتحدث عن هذه الأوجه الأربع للمعايير ، فقال عن الإمارة إنها كأشغال الأحلام لا تثبت أن تزول عن أصحابها مع مرارة الطعام ، أما التجارة فعُرْضَة للمخاطرات وما أشبهها بالطيور الطيارات . وأما الزراعة فذلة ومسْنَهْ سَكَّةَ ، وقيود عائقية ، وأما الصناعة فكثيراً ما تكسد ولا تنفع ، وإن

(١) الفناء : ردهة المنزل .

(٢) في المثل : لا يقرع له العصا ، ولا يقلقل له الحصى ، كناية عن حنكته وتجربته .

(٣) ندب إلى : استحسن .

(٤) الخان : الفندق ، وأمرع خانك : أى بيتك . وهي كناية عن يسار الحال ، ومثل هذه العبارة : ارتفع دخانك : أى كثُر خيرك .

فليس إلا حرفة الكُدُّية ، فهي المتجر الذى لا يكسد ولا يبور ، والمصباح الدائم النور . ثم أخذ أبو زيد يَسْرُدُ لابنه كيف يقتطف ثمارها ويعيش عن طريقها ، عارضاً لفنونها وأحبابها كيدها وشباك مكرِّها .

و واضح أن الحريري يُعِدُّنا بهذه المقامه بالإشراف على نهاية عمله وخاتمه تأليفه ، فقد تقل ببطله في البلدان الإسلامية المختلفة ، حتى أشرف به على الأيام الأخيرة من عمره ، فجعله يودع حرفته ، ويحضر ابنه ليتلقى عنه وصيته ، ويلقى له فيها بخبرته وتجربه .

ونقرأ في المقامه الخمسين فإذا الحريري يعرض علينا أبي زيد ، وهو يتوب إلى الله من صنعته ، ويندم على ما تقلص من ذنبه فيها ، فهو الذي يقبل التوبة من عباده ويسعفو عن السيئات ، وينشد :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ ذَنْبِي  
كُمْ خُضْتُ بِحَرَّ الضَّلَالِ جَهَلًا  
وَكُمْ تَنَاهَيْتُ فِي التَّخَطَّى  
فَلَيَسْتِي كُنْتُ قَبْلَ هَذَا  
لِلْعَفْوِ عَنِّي وَإِنْ عَصَيْتُ  
أَفْرَطْتُ فِيهِنَّ وَاعْتَدَيْتُ  
وَرُحْتُ فِي الغَيِّ وَاعْتَدَيْتُ  
إِلَى الْخَطَايَا وَمَا اتَّهَيْتُ  
نِسِيَّاً وَلَمْ أَجِنْ مَا جَنِيَّتُ  
يَا رَبَّ عَفْوًا فَأَنْتَ أَهْلٌ

ويعلن هذه التوبة الصادقة إلى صديقه الحارث بن همام ، ويعيب عنه ، فلا يعود يراه ، ولا يزال يتنسم أخباره ، حتى يعرف أنه رجع إلى بلده سروج بعد أن فارقها الروما ، ولبس الصوف وأمَّ الصفوف ، وصار بها الزاهد الموصوف ، وبذلك لم يعد ذا المقامات ، فقد أصبح ذا الكرامات . ويرحل إليه ، فيجدوه قد انصب في محاربه ، وأقبل على ذكر ربه وتسبيحه . وسلم عليه ؛ فحياته دون أن يذكر شيئاً من قديمه ، فقد مضى في قُنُوت وخشوع وسجود وركوع . وصحبه إلى بيته وأسهمه في طعامه ، وهو طعام زاهد فقير . حتى إذا أضاءت تباشير الصباح أقبل على صلاته ومناجاة ربه ، حتى ليبكى ؛ ويبكي معه الحارث . ويمضي إلى مسجده هائماً بربه ، فيعرف الحارث أنه أصبح من المتصوفة الذين

أخلصوا وجوههم ونفوسهم إلى ربهم . فيرحل عنه ، وهو يقول له : هذا فراق بيني وبينك . وكانت هذه خاتمة التلاق .

وبذلك تنتهي المقامات ، وقد أهمل الحريري النهايتها خير تأهيل كما افتحتها خير افتتاح ، فهو في أولها يعرف البطل براويته ، وهو في خاتمتها يفرق بينهما . وهو يعد للخاتمة بالمقامة الساسانية كما أسلفنا . وكل ذلك دليل بيّن على أن الحريري صنع مقاماته بشكل بناء متكامل ، له أول واضح والآخر واضح : فنراه يقدم لهذا البناء بمقدمة يذكر فيها أنه أقدم عليه محتذياً على عمل البديع ؛ فإن عظيمها وهو المستظهر ، طلب إليه أن ينشئ مقامات يصوغها على مثال مقامته . ونراه يتواضع إذ يقول إنه طلب منه أن يُقْيله من هذا العمل الصعب ، فلما لم يسعه بالإقالة لبَى دعوته تلبية المطیع . يقول : « وبذلت في مطاععته جهد المستطيع ، وأنشأت — على ما أدعانيه منها — قریحة جامدة ، وقطنة خامدة ، ورويَّة ناضبة ، وهموم ناصبة — خمسين مقامة » .

وهذا تواضع جميل منه ، وقد كرره في آخرها ، إذ ذهب يقول : « إنها من سَقَطِ المتع ، وما يَسْتُوجِبُ أَنْ يَبَاعَ وَلَا يَبَتَاعَ ، وَلَا غَشَّيْنِي نور التوفيق ، ونظرت لنفسى نظر الشفيف ، لـسَقَطَ عَوَارِيَ الَّذِي لَمْ يَزُلْ مُسْتَوْرًا ؛ ولكن كان ذلك في الكتاب مسطوراً ، وأنا أستغفر الله تعالى مما أودعتها من أباطيل اللغو ، وأضاليل اللهُو ؛ وأترشده إلى ما يَعْصِمُهُ من السهو ، وُيَحْبَطُهُ بالعفو ، إنه هو أهل التقوى وأهل المغفرة ، وولىُّ الخيرات في الدنيا والآخرة » .

على أنه ينبغي أن نعرف أن هذا التواضع الذي افتح به مقاماته واحتتمها لم يكن صادقاً فيه كل الصدق ، فقد كان مؤمناً بعمله ، وقد أجرى على لسان أبي زيد شهادات مختلفة تؤكد تفوقه وإحسانه ، فمن حين إلى حين نراه يتمحدث عن روعة كلامه وبلاعته ، حتى ليقول في المقامة السابعة والأربعين : إن يكن الإسكندرى قبيل فالطلل قد يبلدو أمام الوبيل <sup>\*</sup>  
والفضل للوابل لا للطلل

فهو يقدم أبا زيد على أبي الفتح الإسكندرى ، وبالحرى أنه يقدم نفسه على بديع الزمان ، وقد أكثر الحارث بن همام من وصف افتنان أبي زيد ومقدراته على حِوْكَ الكلام ، مع البلاغة الرائعة والبديهة المطاوعة والغَوْص في لُجَاج البيان . وليس الحارث وحده هو الذى تبهره فصاحتـه ، فالولاة والحكام والقضاة والناس جميعاً يُفْتَنُون ببراعة عبارته ومسـاح استعارته ، وما ينظم وينثر من دُرِّره مما يخلب العقول ، ويُسـحر القلوب .

## ٣

## الموضوع

تدور مقامة الحريرى على الكـدـية والاستجداء ، وهو من هذه الناحية أدق من بديع الزمان ؛ فقد رأينا المقامة عنده إنما تدور على الكـدـية غالباً ، وأنه أشرك معها موضوعات أخرى ، فلم يقف بها عند الموضوع الأسـاسـي . أما الحريرى فسلكـها جميعـاً في قالـبـ الشـحـاذـة ، وعرضـ أبا زـيدـ فيها دائمـاً أدبيـاً شـحـاذـاً . غيرـ أنـ هذهـ الحـبـكةـ الظـاهـرـةـ يـنـبـغـيـ أنـ لاـ تـغـرـنـا ، وـأنـ لاـ نـطـلـقـ عنـ طـرـيقـهاـ أحـكـامـناـ فإنـ الحرـيرـىـ اتـخـذـ الـكـدـيـةـ شـكـلاـ ظـاهـراـ لـمـقـامـهـ ، وـإـذـ أـنـعـمـناـ النـظرـ فيهاـ وـجـدـنـاهـ يـعـالـجـ بـهـ مـوـضـوـعـاتـ مـخـلـفـةـ ، مـنـهـاـ مـاـ يـشـرـكـ فـيـهـ مـعـ الـبـدـيـعـ ، وـمـنـهـاـ مـاـ يـنـفـرـدـ بـهـ .

أماـ ماـ يـشـرـكـ فـيـهـ مـعـهـ الـوعـظـ ، وـإـذـ كـنـاـ قـدـ لـاحـظـنـاـ أـنـ بدـيـعـ الزـمانـ عـرـضـ أـبـاـ الفـتـحـ الإـسـكـنـدـرـىـ وـاعـظـاـنـاـ فـيـ مـقـامـيـنـ فإنـ الحرـيرـىـ عـرـضـ أـبـاـ زـيدـ وـاعـظـاـنـاـ فـيـ عـشـرـ مـقـامـاتـ ، بلـ قـدـ تـزـيدـ . وـمـنـذـ الـمـقـامـ الـأـوـلـىـ نـجـدـ هـذـهـ التـزـعـةـ بـارـزةـ عـنـدـهـ ، وـفـيـهـ يـقـولـ :

«أـيـهـ السـادـرـ فـيـ غـلـوـائـهـ ، السـادـلـ ثـوـبـ خـيـلـاـتـهـ ، الـجـامـحـ فـيـ جـهـالـاتـهـ ، الـجـانـحـ إـلـىـ خـرـزـ عـبـلـاـتـهـ ، إـلـامـ تـسـتـمـرـ عـلـىـ غـيـلـكـ ، وـتـسـتـمـرـ مـرـعـىـ بـغـيـلـكـ ، وـحـتـامـ تـنـتـهـىـ فـيـ زـهـوكـ ، وـلـاـ تـنـتـهـىـ عـنـ هـوـكـ ، تـبـارـزـ بـعـصـيـتـكـ ، مـالـيـكـ نـاصـيـتـكـ ، وـتـجـرـىـ بـقـبـعـ سـيـرـتـكـ ، عـلـىـ عـالـمـ سـرـيـرـتـكـ ، وـتـنـوارـىـ عـنـ

قربيك ، وأنت بمرأى رقبيك ، وستخفي من ملوكك ، وما تخفي خافيةْ<sup>\*</sup>  
على مليكك ، أتظن أنْ ستفعل حالك ، إذا آن ارتحالك ، أو ينقذك  
مالك ، حين تُوبِّلَك أعمالك ، أو أنْ يعني عنك ندمك ، إذا زلت قدمك ،  
أو يعطف عليك معاشرك ، يوم يضمك محشرك ؟ . . . »

ويستمر في هذا الوعظ لا في هذه المقامات وحدها ، بل أيضاً في المقامات  
الثانية ، والحادية عشرة ، والواحدة والعشرين ، والخامسة والعشرين ، والواحدة  
والثلاثين ، والثالثة والثلاثين ، والواحدة والأربعين ، والثامنة والأربعين ، والخمسين .  
ففي هذه المقامات جميعاً وفي قطع صغيرة من مقامات أخرى يخصُّ على المدى  
ويبحث على العمل الصالح ، ويُزَرِّى على الدنيا ومنْ يُغَرِّمُونَ بها ، ويذكر  
ثواب الآخرة وما ينتظر الناس . ولعل من أطرف ما صنعه في هذا الجانب أنْ  
تجده في المقامات الثانية عشرة الدمشقية يقدم لنا أبا زيد خفيراً لقاقة ، وفراه  
يُخفرها لا بعينه ، بل بدعوات طيبات تطرد على هذا النسق :

« اللهم يا مُحيي الرفات ، ويَا دافع الآفات ، ويَا واقَ الحفافات ، ويَا كريم  
المكافحة ، ويَا مَوْثِل العُفَافَة<sup>(١)</sup> ، ويَا وليَ العفو والمغاففة ، صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ خاتِم  
أنبيائِك ، ومبلغَ أَنْبائِك ؛ وعلى مصابيحِ أُسرته ، ومفاتيحِ نُصْرَته ، وأعِذْنِي  
من نزغات الشياطين ، ونزواتِ السلاطين ، وإعناتِ الباugin ، ومعاناةِ الطاغين ،  
ومعاداةِ العادين<sup>(٢)</sup> ، وعدوانِ المعادين ، وغَلَبِ الغاليين ، وسلَبِ السالبيين ،  
وحِيلِ المحتالين ، وغيَّلِ<sup>(٣)</sup> المغتالين ، وأجِرْنِي اللهم من جَوْرِ المجاورين<sup>(٤)</sup> ،  
ومجاورةِ الجائزين ، وكُفَّ عنِ أكْفَ الصائمين ، وأخرِجْنِي من ظلماتِ  
الظالمين ، وأدْخِلْنِي برحمتك في عبادك الصالحين ، اللهم حُسْنِي في تربيتي<sup>(٥)</sup> ،  
وغرِّبْنِي ، وغيَّبْنِي ، وأوْبِنِي ، ونُجْعَنِي<sup>(٦)</sup> ورجِعْنِي ، وتصرُّفْنِي ،

(١) العفاف : طلاق الحاجات . (٢) العادين : الظالمين . (٣) غيل : جمع  
غيلة . (٤) المجاورين : الجن . (٥) تربى : وطني . (٦) نجعنى : من  
ال فعل يتعجب أي يطلب المعرفة .

ومنْصَرَقِي ، وتقْلُبِي ، ومسْقَابِي ، واحفظني في نَفْسِي ، ونفائي ، وعِرْضِي ، وعَرَضِي<sup>(١)</sup> وعدَدِي وعدَدِي . . . ولا تلحق بي تغييرًا ، ولا تسلط على مُغِيرًا ، واجعل لي من لَدُنْك سلطانًا نصيراً . . . »

ويَخِفَ الحريري على النفس في هذه المقامات التي تنحو نحو الوعظ أو الدعاء بخفة أسلوبه ورشاقة عباراته . فإذا عرفنا أن الناس في عصره كانوا يولّون وجههم نحو الدين يرجون من ربهم أن يخرجهم من ظلمات أنفسهم وظلمات لأنهم فساد ملوكهم وحكّمهم ، وأن يعينهم في حربهم ضد الصليبيين مما دفعهم دفعاً ، أو قل دفع كثيراً منهم إلى التصوف ، وأن يطلبوا ما عند الله ويترکوا ما عند الناس . إذا عرفنا ذلك استطعنا أن نقدر هذه المواقع والأدعية الحريرية حق قدرها ، وأن ندرك مدى تأثيرها بها في الأدباء والطلاب من حوله .

وشُغِفَ الحريري بموضوع ثان لا يتصل بهذه المرأة بالحياة الاجتماعية ، وإنما يتصل بالحياة الأدبية فقد تعمقت هذه الحياة ، وأخذ أصحابها يُعنون بالعقدة البلاغية . فليست البلاغة الرائعة هي العبارة المنقحة بالسجع والخلابة بألوان البديع ، فذلك أمر يهون ، وتستطيع الألسن كلها أن تصل إليه . وإنما البلاغة الرائعة حقاً هي التي تتيح لصاحبها أن ينحاز جملة عن كل الطرق الطبيعية في الفن ، وأخذ الحريري يُثبت مهارته في ذلك ، وخصص به اثنى عشرة مقامة ، أرانا فيها ألعاب الفنية ، وكأنها ألعاب بتهلوانية .

وأول ما يلقانا من هذه الألعاب المقامات السادسة ، وقد حضر أبو زيد ديوان المكاتبات ببلدة المراغة ، واجتمع بأرباب البراعة والبلاغة ، فأراد أن يروّعهم ويخلب أبابهم ، فعرض عليهم رسالة أودعها شرح حاله . وليس هذا هو المهم ، إنما المهم أنه التزم فيها أن تكون حروف إحدى كلمتيها منقوطة وحروف الثانية غير منقوطة ، على هذه الشاكلة : « الكرم ثبَتَ الله جيش سعودك يَزَّين ، واللَّؤْمُ غَضَّ الدهْرُ جَفَنْ حَسُودُك يَشَّين » . . . وانصبَ يتنقل بين

(١) العرض : مال التجارة .

مثل هذه الكلمات مطيلاً ما استطاع حتى بهر ساميته ، وأوسعوه حفاوة وعظفنا  
ولإكراماً .

ويُنحرفُ الحريري عن هذه الطريق الصعبة ، حتى إذا وصل إلى المقامات  
السادسة عشرة ، وهي المقامات المغربية ، أوقف يعرض لُعنة جديدة لا تكاد تخطر  
ببال ، وهي لُعنة « ما لا يستحيل بالانعكاس » كقولك : ساكب كاس ،  
فإنه يمكن أن تُقرأً طرداً وعكساً فلا تغير حروفها ، وعرض علينا أمثلة ثانية  
منها مثل : لُمْ أخَّا ملَّ ، كَبِيرٌ رجاء أَجْرٌ ربِك . ثم لم يلبث أن نشرها على  
أسلاك من الشعر ، فقال :

أَسْ<sup>(١)</sup> أَرْمَلَ<sup>(٢)</sup> إِذَا عَرَّا  
أَسْنَدْ أَخَا نَبَاهَة<sup>(٣)</sup>  
أَبْنَينْ<sup>(٤)</sup> إِخَاءَ دَنَسَةَ  
أَسْلَى جَنَابَ غَاشِمَ<sup>(٥)</sup>  
أَسْرَ<sup>(٦)</sup> إِذَا هَبَ مِرَّاً<sup>(٧)</sup>  
أَسْكُنْ<sup>(٨)</sup> تَقَوَ فَعَسَى<sup>(٩)</sup>  
وَارْعَ<sup>(١٠)</sup> إِذَا الْمَرَءَ أَسَّا

وما نطق أبو زيد بهذه الشعر حتى سحر السامعين بآياته . وقد لا نعجب  
نحن الآن بهذه الشعوذة ، ولكنها كانت تعد غاية بعيدة عندهم في الإبداع  
الفنى ، وكان الحريري يعرض عليهم منها ما يدل على تفوّقه وإجادته وأنه يُعد  
من أمهر اللاعبين وأكثرهم تجربة وحسنكة .

ويدخل في هذه اللعنة أن نجده في المقامات السابعة عشرة ، وهي المقامات  
القهقرية ، يؤلف رسالة تُقرأً كلماتها من آخرها إلى أوتها كما تقرأ من أوتها إلى  
آخرها ، فهي ذات وجهين ، وتُنسَسِج على مِنْوالين إن شئت فرأتها كما تقرأ  
الصحف والرسائل من اليمين إلى اليسار ، وإن شئت عَكَستها ، فقرأتها من

- (١) أَسْ : أَعْطَ .      (٢) أَنْ : اقطع .      (٣) أَسْرَ : أمر من السر ويعني  
الشرف والترفع عن مشاركة الناس في الخصومات والحدُول .      (٤) المَرَّا : الجدال .  
(٥) تَقَوَ : تتفوق وهو مجزوم في جواب اسكن .

اليسار إلى اليمين . وهي مجموعة من الحكم أخرجها في مائة كلمة على هذا النحو : « الإنسان صنيعة الإحسان » فأنت تستطيع أن تقرأ هذه العبارة « الإحسان صنيعة الإنسان » وهكذا بقية الرسالة ، فهي تقوم على الطَّرد والعكس في الكلمات لا في الحروف .

ونمضي إلى المقامات السادسة والعشرين ، وهي المقامات الرقطاء ، فنجد له قد عدل عن تسميتها ببلد من البلدان إلى هذا الاسم الذي سماها به لأنها تتكون من كلمات راعى فيها أن تتوالى حروفها بالتبادل بين الإعجم والإهمال ، أو بين النقط وعدم النقط ، وهي تجري على هذا النمط : « أَخْلَاقُ سِيدِنَا تُحَبُّ ، وَبَعْقُوْتَهُ (١) يُلْبِّ (٢) ، وَقَرْبَهُ تُحَسِّفُ ، وَنَأِيَهُ تُلْفُ ، وَخُلُّتَهُ (٣) نَسَبُ ، وَقَطِيعَتَهُ نَصَبُ ، وَغَرِيْبَهُ (٤) ذَلِيقُ ، وَشَهِيْبَهُ تَأْلِقُ ، وَظَلَّمَفَهُ (٥) زَانُ ، وَقَوْيَمُ نَهْجَهُ بَانُ ، وَذَهْنَهُ قَلْبَهُ وَجَرَبُ ، وَنَعْتَهُ شَرَقُ وَغَرَبُ :

سِيدُ قَلْبَ سَيْوَقُ مُسِيرُ (٦) فَطَنُ مُغْرِبُ عَزْوَفُ عَدْوَفُ  
خَلْفُ مَتْلَفُ أَغْرِيْرُ فَرِيدُ نَابَهُ فَاضِلُّ ذَكَرُ أَذْرَفُ

ويظل طويلاً ، ينشر حيناً وينظم حيناً ، معبراً عن قدرته ومهارته في حشد هذا النوع من الكلمات ، وكأنه طباع يصف حروفاً متلاصقة ، فتألف له الألفاظ ، وكأنها صناديق مت嫁ورة .

وكان حريصاً أن يذيع في مقاماته هذه اللعبة الدقيقة التي لا يؤتها في رأيه إلا البارعون في فن النثر والشعر جميعاً ، فقد رجع يستخدمها في المقامات الثامنة والعشرين ، وهي المقامات السمرقندية ، وفيها نرى أبا زيد يرتفع منبر مسجد ، ويخطب في الناس خطبة ، كل كلماتها غير منقوطة ، من مثل قوله : « اعملوا —

(١) المقصود : الفنان . (٢) يلب : يلزم . (٣) خلة : صدقة .

(٤) الغرب : السيف ، وذلك : حاد . (٥) الظلف : العفاف . (٦) مبر :

يبر الناس .

رحمكم الله – عمل الصالحاء ، واكسروا المعادكم كدح الأصحاباء ، واردعوا  
أهواكم ردع الأعداء ، وأعدوا للرحلة إعداد السعداء ، وادرعوا جملة الورع ،  
وداؤوا عيل الطمع . . وادكروا الحمام وسكرة مضرعه ، والرمضان<sup>(١)</sup> وهول  
مطلاعه ، والحمد ووحدة مودعه ، والملك وروعة سؤاله ومطلعه » .

وما يزال يتذوق بهذا الفيض العذب ، حتى يحكمها خطبة بديعة ، ولعله  
كان يفكر أثناءها أن يتتفوق على ابن نباتة خطيب سيف الدولة المشهور ، فقد  
كانت خطبه تروع الناس ، وتناقلها الأدباء والرواة ، فأراد الحريري أن يثبت  
أنه ليس أقل منه شأنًا في هذا الباب ، بل لقد ذهب يصعب المسالك على نفسه ،  
 فهو لا يخطب على سجنته ، بل يتزلم السجع والبديع ، ولكن ذلك غير كاف  
في رأيه للدلالة على مهارته البيانية ، إذن فليشق على نفسه ، وليشترط في خطبته  
أن تكون من كلمات خاصة في اللغة ، هي الكلمات المهملة المحروفة .

على أن مجال القول واسع في خطبة يوم الجمعة ، ومن هنا نراه يفكر في  
خطبة عسيرة يجرب فيها هذه اللعبة التي راقته ، وأى خطبة أعنسر من خطبة  
الزواج . فإن المتكلم فيها يكون متخرجاً ، ولا يعود أن يتحدث عن الخاطب ،  
 وأنه كفؤ خطيبته ؟ وذلك هو الذي دفعه في المقابلة التالية للمقامة السابقة ،  
وهي المقامة الواسطية ، أن يطلب هذه الخطبة وأن ينشر فيها فنه ، ويدفع  
بضاعته على هذا النحو :

« الحمد لله الملك الحمود ، المالك الودود ، مصوّر كل مولود ، وما لـ كل  
مطروح ، ساطح المهد ، وموطّد الأطواود ، ومرسل الأمطار ، ومسهل الأوطار ،  
عالم الأسرار ومدركتها ، ومدهر الأملاك<sup>(٢)</sup> ومهلكتها . طاوع<sup>(٣)</sup> السؤل والأمل ،  
وأوسع المرميـلـ والأرمل ، أحـمـدـ حـمـدـاً مـدـوـداً مـدـاهـ . . . وهو الله لا إله إلاـ للأـمـمـ  
سوـاـهـ ، ولا صـادـعـ<sup>(٤)</sup> لما عـدـلـهـ وـسـوـاـهـ ، أـرـسـلـ مـحـمـداً عـلـمـاً لـلـإـسـلـامـ ، وإـمـاماًـ

(٢) الأملاك : الملك والدول .

(٤) صادع : صارف .

(١) الرمس : القبر :

(٣) طاوع : أجاب .

للحكام . . اعملوا - رعاكم الله - أصلحَ الأَعْمَال ، واسلكوا مسالكَ الْحَلَال ،  
واطسِّرُوا الحرامَ ودعوه ، واسمعوا أمرَ الله وعُوه ، وصلوا الأرحامَ وراعوها ،  
وعاصوا الأهواءَ واردعوها ، وصاهموا لِسُبْحَانِ الصلاحِ والورعِ ، وصارموا رَهْنَطَ  
اللهِ وَالظُّمْعِ ، وَمُصَاهِرُكُمْ أَطْهَرُ الْأَحْرَارِ مولداً ، وأُسْرَاهُمْ<sup>(١)</sup> سُؤْدُدَاً ،  
وَأَحْلَامُهُمْ مورداً ، وأصْحَحُهُمْ موعداً . .

وما يزال يبدىء ويعيد في هذا النسج العاطل من النقط . ويظهر أنه لم يقنع  
بهذه التجربة وما سبقها ، فعاد في المقامه السادسه والأربعين ، وهي المقامه الخلبيه  
يعرض نماذج جديدة من الشعر ، بعضها منقوط ، وبعضها غير منقوط ، ومن  
مثال المنقوط قوله :

فَتَسْتَنْتَنِي فَجَنَّتَنِي تَسْجَنَنِي<sup>(٢)</sup> بِتَجْنَنٍ يَفْتَنَنِي غَيْبَ تَسْجَنَنِي  
وكأنه رأى هذه النماذج دون غايتها ، فصاغ نموذجاً تتواتي فيه كلمات  
الأبيات ، وإحداها منقوطة ، والثانية غير منقوطة على هذه الصورة :  
اسْمَخْ فَبَثْ السَّاحِرِ زَيْنْ<sup>\*</sup> وَلَا تُخْبِرْ آمَلًا تَضِيقَ  
ولم يكفه هذا النموذج ، فأضاف إليه نموذجاً آخر يقوم على التجنيس  
الخطي بين الكلمات ، بحيث لوحذفت النقط منها ترأت مئاتة تمام التمايل من  
مثل قوله :

زُيَّنَتْ زَيْنَبْ بَقَدَّ يَسْقُدَّ<sup>\*</sup> وَلَاهْ وَلَاهْ نَهَدَّ يَهَدَّ  
وكان هذا الجناس لم يبلغه كل أمنيته ، فذهب ينظم بيتهن ، تتجانس  
فيهما فاتحتهما وخاتمتها إذ يقول :

سِمْ سِمَةَ تَحْسُنْ آثارها  
وَاشْكُرْ مِنْ أَعْطَى وَلَا سِمْ سِمَةَ  
وَالْمَكْرُ مِهْمَا اسْطَعْتَ لَا تَأْتَه  
فهو يضيق على نفسه في اصطداع الجناس إذ يلتزمه في مطلع البيت وفي  
نهايته . كل ذلك ليدل على تفوقه . ولم يلبث أن أوغل في الغريب ، فأنسد

(١) أسرام : أشرفهم .

(٢) تجني : اسم صاحبته .

أبياتًا لما يشكل من الكلمات ذات السين وأخرى لما يجري على السين والصاد ، وتمادي في مسائل لغوية عسيرة .

والحريريُّ في هذا كله كأنه حاوٍ من الحواة ، فهو يعرض ألعاباً وتمارين هندسية غريبة ، أو قل إنه يعرض أفاعي البلاغة بأديمها الملوّن بالنقط والحناس الخطى وغيرهما . ومن هذه الأفاعي وأجملها في نفسه ورأيه أفاعي الأمثال ، فقد حشا مقاماته بها ، وتفرّدت بعضها كأنها هي الغاية من تأليفها أو قل هي الموضوع على نحو ما يرى القاريء في المقامات التاسعة عشرة والسابعة والعشرين والأربعين والسابعة والأربعين . غير أن من الحق أن نقول إن الحريري لم يستسمِعْ في ذلك كله فقد كان يحميه طبع حاد وإحساس دقيق باللغة ، فيَزَّ دائمًا الخبيث من الطيب والجيد من الرديء ، فهمما لعب ، ومهما أشكّل بتهارين في مقاماته فإنه لا يشقّل . ولعل من خير الأمثلة على ذلك مقامته الثالثة والعشرين ، وهي المقامات الشعرية ، وعنوانها يدل على ما أراده بها من إعلان مقدراته في النظم ، وقد فكر وانتهى به تفكيره إلى نظم هذه الأبيات :

يا خاطب الدنيا الدنيا	شـرـك الرـدـى وـقـرـارـة الـأـكـنـدارـ
دارـ مـتـى مـا أـضـحـكـتـ فـيـ يـوـمـهـا	أـبـكـتـ غـدـاً بـعـدـاـهـا مـنـ دـارـ
غـارـاتـهـا مـا تـنـقـضـي وـأـسـيرـهـا	لا يـفـتـنـتـدـاـي بـجـلـائـلـ الـأـخـطـارـ

واستمر حتى أتم قصيدة طويلة . وليس في ظاهر الأبيات شيء ، ولكن إذا أطلنا النظر فيها لاحظنا ما ابتغاه منها ، فإنه التزم في داخلها قافية غير القافية الخارجية ، بحيث يمكن أن تنسد القصيدة كائناً على هذا النمط :

يـاـ خـاطـبـ الدـنـيـاـ الدـنـيـاـ	ـةـ إـنـهـ شـرـكـ الرـدـىـ
ـدـارـ مـتـىـ مـاـ أـضـحـكـتـ	ـفـيـ يـوـمـهـاـ أـبـكـتـ غـدـاـ
ـغـارـاتـهـاـ مـاـ تـنـقـضـيـ	ـوـأـسـيرـهـاـ لـاـ يـفـتـنـتـدـاـيـ

ومن غير شك هذه المقامات كلها التي تحدثنا عنها إنما أراد بها الحريري

إلى هذه اللعب الأدبية ، ولذلك زعمنا أنها الموضوع الحقيقى الذى أراده منها فأبُو زيد ليس إلا حيلة لعرضها وتصويرها وحِبَّك رسوها وبيان دقائقها . وشاعت في هذا العصر الألغاز ، يُلغز الأدباء بكلمات أو بأوصاف لأشياء ، يمتحنون بها ذكاء السامع ومدى حضور بديهته . ولعل ذلك ما جعل الحريري يختص الألغاز بثلاث مقامات ، هي المقامات السادسة والثلاثون والثانية والأربعون والرابعة والأربعون ، فكلها أُلْفَت للتحاجي والمطارحة وامتحان اللمعية ، في استخراج المعانى الخفية . وقد شرحها الحريري بنفسه إما في متن المقامات ، وإما بمحاشية ألحقها بها مثل قوله :

وقدِرُّينْ مَنْيَ مَا سَاءَ صَنَعُهُمْ<sup>١</sup>      أَوْ قَصَرُّوا فِيهِ قَالُوا الذَّنْبُ لِلْحَطَّابِ  
فَقَدْ أَلْغَرَ فِي قَادِرِينْ إِذْ أَرَادُ بَهَا الطَّابِخِينَ بِالْقَدْرِ ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ :  
وَكَاتِبِينَ وَمَا خَطَّتْ أَنَّا مَلْهُمْ<sup>٢</sup>      حَرْفًا لَا قَرَعُوا مَا خَطَّتْ فِي الْكِتَبِ  
فَقَدْ أَلْغَرَ فِي كَاتِبِينَ إِذْ أَرَادُ بَهَا الْحَرَازِينَ . وَقَدْ لَا تَعْجِبُنَا هَذِهِ الْأَلْغَازُ  
الْيَوْمَ ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ مَقِيَاسًا لِلذَّكَاءِ عِنْدَهُمْ ، وَكَانَ الْكِتَابُ وَالشِّعْرَاءُ يَتَسَابَقُونَ  
فِي صَنْعِهَا وَإِحْكَامِهَا .

وعلى نحو ما جعل الألغاز موضوعاً لبعض مقاماته جعل النحو والفقه أيضاً موضوعين لها ، ولم يتسع في ذلك ، فقد خص النحو بمقامة واحدة هي المقامة الرابعة والعشرون وهي المقامه القطعية ، بسط فيها اثنى عشرة مسألة نحوية ، أما الفقه فأفرد له مقامتين ، هما المقامه الخامسة عشرة المسماه بالفرضية ، تحدث فيها عن مشكلة من مشاكل علم الميراث أو علم الفرائض وأنصبة الورثة ، وأثبتت حلّها ، ثم المقامه الثانية والثلاثون التي سماها الطبيبة نسبة إلى طبيبة وهي المدينة ، وقد ضمّنتها مائة فقهية وأجبتها مفسّرًا في أثنائهما الكلمات الغريبة . ونحن نعرض على القارئ قطعة منها ليتبين كيف كان يجمع المسائل الفقهية والإجابة عنها جمعاً ويرصدها رصداً . ويعرض المسائل فقيه ويحببه أبو زيد على هذا النحو .

ـ «أيجوز الوضوء ما يقتضيه التعبان؟ قال : وهل أنظف منه للعرّيان (التعبان جمع ثعب وهو مسيل الوادي) قال : أيسْتُباح ماء الضرير<sup>(١)</sup>؟ قال : نعم وبِحَقِّ تَسْبِبِ ماء البصیر . (الضرير : حرف الوادي والبصیر : الكلب) ... قال : فما تقول : فيمن تيمم ثم رأى روضاً ، قال : بطل تيممه فليتوهضناً (الروض : جمع روضة وهي الصيابة تبقى في الحوض) قال : أيسْتُصلِّي على رأس الكلب؟ قال : نعم كسائل المَضْبُب (رأس الكلب : ثانية معروفة) قال : فإن حمل جسراً وصلَّى ، قال : هو كما لو حمل باقلاء<sup>(٢)</sup> (الجِرْو : الصغار من القثاء والرمان) قال : أيجوز أن يؤمّ الرجال مقنع<sup>(٣)</sup>؟ قال : نعم ويؤمّهم مدرع (المقنع : لابس المغفر<sup>(٤)</sup> ، والمدرع : لابس الدرع) قال : فإن أمّهم من في يده وقف؟ قال : يعيدون ولو أنهم ألف (الوقف : السوار من العاج) . . . قال فإن أمّهم الثور الأجم<sup>(٥)</sup>؟ قال : صلّ وخلّاك ذمّ : (الثور : السيد ، والأجم : الذي لا رمح معه) قال : أيدخل القَصْر<sup>(٦)</sup> في صلاة الشاهد؟ قال : لا والغائب<sup>(٧)</sup> الشاهد (صلاة الشاهد : صلاة المغرب سميت بذلك لإقامتها عند طلوع النجم ، لأن النجم يسمى الشاهد) . . . قال : فهل للمعرس أن يأكل في رمضان؟ قال : نعم بملء فيه (المعرس : المسافر الذي يتزل في آخر ليله ليستريح ، ثم يرحل) قال : فإن أفتر فيه العرّاء قال : لا تنكر عليهم الولاية (ال العراة : الذين تأخذهم العرواء ، وهي الحمى برعده) قال : فإن أكل الصائم بعد ما أصبح؟ قال : هو أحوط له وأصلاح (أصبح : استصبح بالصبح) : قال : فإن أكل قبل أن تتواري البيضاء؟ قال : يلزمك والله القضاء (البيضاء : من أسماء الشمس) » .

(١) الضرير : الأعني ، وليس ذلك المعنى المراد كما هو واضح .

(٢) الباقلاء : النبات المعروف باسم الرجلة . (٣) المقنع هنا : من يلبس القناع .

(٤) المفتر : رداء تضعه المرأة على وجهها وأصله سلاح الحرب يبقى به الرأس .

(٥) القصر : تقدير الفروض الرباعية يجعلها اثنين . (٦) الغائب الشاهد : هو الله

عز وجل لأنّه يغيب عن أبصارنا ويشاهدنا ويطلع علينا .

ويسترسل الحريري في أسئلته وعَرَضَ أجبتها ، واضحة أنه يحتال في السؤال حيلة لغوية ، فيذكر كلمة لها معنى مشهور ، ويريد بها معنى لغوياً غير معروف . وبذلك يُطْرُف قارئه ، ويُوسِّع معجمه اللغوي . فالمقامة لا يراد بها الفقه فقط ، بل يراد بها اللغة أيضاً .

وعلى هذه الشاكلة كان الحريري يعني في مقاماته باللغة ، وحتى هو إن تركها إلى الفقه أو غيره لم يستنسَها ولم يهملها ، فهو « كإبرة البوصلة » يتوجه إليها دائمًا . ولعل ذلك ما جعله ينبعذ عصره ومجتمعه ، فليس في مقاماته منها إلا ظلال خفيفة كأن يذكر دُبَيْساً الأسدى في المقاماة العمانية ، وكان أميرًا في حلة العراق لزمه ، أو يذكر ظلم الولاية أو يصور بعض الأسواق أو بعض عاداتهم حينئذ ، كاتخاذ العُوذ والأحتجبة والثائم ، أو يصوّر بعض من يتظاهرون بالدين ويبطئون إلحاداً وضللاً . غير أن هذا كله محدود بحيث إذا قلنا إن مقاماته ليست إلا شباكاً لصور من الكلمات لم تُسْعِدْ ، ولم نكن من المغالين .

## ٤

**الأسلوب**

وضع الحريري مقاماته على أسلوب البديع في مقاماته من حيث الحوار المحدود بين الرواى والبطل ، ومن حيث هذه الصيغة الثابتة في أول المقامة « حدثنا : . . . . . ». فمقاماته تأخذ أسلوب القصة ، وهى أكثر حبكة من مقامة البديع ، ولكن لارتفاع الغاية القصصية بعيدة عن الحريري ، إذ لم يحاول فعلاً أن يقدم لنا قصة ، وإنما حاول أن يقدم حديثاً فيه ما يشوق عن طريق أبي زيد ، هذا الأديب الشحاذ الذى يظهر فى مناظر مختلفة وبلدان مختلفة ، وهو حديث لا يراد لذاته ، وإنما يراد لعرض أساليب أدبية بديعة .

فالأسلوب هو غاية الحريري من مقامته ، وإن ذُنْ فلن الخطأ أن نطلب عنده كيان القصة الحقيقة ، أو مدى تصوره للنفس الإنسانية ، فإنه لم يفكر في شيء من ذلك ، إنما فكر في أن يروع معاصريه بما يعرضه من الشكل الخارجي لمقامته ، وقد رأينا أنه يعمد إلى منحرفات أدبية يسوق فيها بعض مقاماته ، إذ يعرض بعض الألعاب البلاغية التي كانت تروق عصره من مثل خطبة عاطلة من النقط ، أو قطعة شعر حالية به ، أو رسالة تقرأ من آخرها إلى أولها أو أبيات من الشعر تجري على نفس المثال .

وكل هذا عنده معناه أنه كان يحاول جاهداً أن يلام بين عصره وبين مقامته فقد رأى الأدباء الذين سبقوه وعلى رأسهم أبو العلاء أوغلوا في عقد مختلفة ، فلم يخرج عليهم ، بل حاول أن يختار لهم .

ومع ذلك فإنه قصر عقده أو ألعابه على مقامات خاصة ، هي تلك التي عرضنا لها آنفًا ولم يحاول أن يغرق إلى أذنيه في تلك العقد ، بل اختار منها أشياء خفيفة ، اقتصر في تطبيقها على طائفة من مقاماته ، وترك بقيتها حرفة غير مقيدة بهذه القيود الثقيلة ، ونستطيع أن نعرف مدى تخاصمه في الجملة من هذه الأعباء التي كان يرثح تحتها أدباء عصره ، إذا وزنا بينه وبين أبي العلاء في رسالة الغفران .

فنحن نجد عند الأخير ثقلًا ، ولا نستطيع أن نتقدم دائمًا في قراءته ، بل تقوم أمامنا حواجز اللغة ، إذ عُنى أبو العلاء بأن تكون آثاره كأنها متون . وإذا انتقلنا فقرأنا في كتابه « الفصول والغايات » وجدنا أنفسنا بإزاء غابات ملتفة ، كلها صعوبات وانحرافات عن الطرق الطبيعية في الكتابة .

وكان الحريري يرى تعلق معاصريه بمثل هذه الصورة ، فلم يتسعها جملة من عمله ، بل استأثر بها ، ولكن في بعض جوانب مقامته ، حتى يثبت أنه لا يقل مهارة عن غيره ، بل إنه يتقدم كل معاصريه لو شاء أن يستخدم هذه الألعاب السحرية ، حتى الألغاز حاول أن يؤلف منها بعض مقامات ليُرى

الأدباء أنه يستطيع ، أن يصبّ في جميع القوالب ، وأن ينحت ما يشاء من تماثيل .

ثم تعود إليه نفسه أو تعود إليه طبيعته ، فإذا هو ينفر من تلك اللعب والمارين ويعود إلى بديهته المطاوعة ، فيُرضي عيّانها ، ويسوق أسلوبًا متجرراً من هذه الأثقال . ونقرأ فإذا بنا نقع على أجمل ما استطاع العرب في عصورهم الوسطى أن ينسجوه من صياغات بدعة .

وهي صياغات تقوم على السجع والشتمد في استخدامه ، إذ كان الأسلوب العام للكتابة ، ولكنه يأخذ منازل ، تارة تضاف إليه تعقيدات ، وتارة يخلو منها جملة ، وقارأ ثلاثة ينزل منزلة وسطى بين الطرفين .

وخطب الحريري في سجعه لألوان البديع ، وللجناس خاصة ، ولكن لم يشق عنده ، فقد كان يعرف كيف يسر النفس ، ويشرح الصدر ، وكان لديه من الذكاء والإحساس بألفاظ اللغة ما جعله ينفي عن عمله كل غصاضة وكل ضيق . فما تقرؤه حتى تشعر أنك ارتبطت به ، وأنه عقد بينك وبينه رابطة مودة ، لا لسبب إلا لأنه كان يعرف كيف يختار ألفاظه ، وكيف يت彤بها ، بحيث تلتئم مجموعاتها على نحو ما تلتئم الأنغام الصادرة عن آلات موسيقية مختلفة . ومقامة الحريري في الحقيقة تتفوق من هذه الناحية على كل ما خلفته لنا العصور الوسطى ، فقد انتهى صاحبها من حيث جمال اللفظ إلى القمة ، ووقف الأدباء والنقاد أمامه مشدوهين ، إذ وجدوا في أسلوبه حيوية نافذة .

ومرد هذه الحيوية إلى هذا الثوب المتوجه من السجع ، الذي لا نجد فيه نقصاً ، فقد فصله وقطعه ووشأه ذوق رفيع ، كان يعرف كيف يضع الكلمة بحوار الكلمة ، وكيف يشد اللفظة إلى أختها وكأنه عازف قيثار .

وقد قالوا إنه أمضى تسع سنوات من سنة ٤٩٥ إلى سنة ٥٠٤ يؤلف هذا العمل الفريد ، وهي ليست مدة كبيرة بجانب ما أودعه من إحسان وإبداع . وما أذاعه حتى تدافع عليه الطلاب من العالم الإسلامي ، وتزاحموا ببابه على نحو

ما يتزاحم في عصرنا الناس على أبواب دور الخيانة عند ظهور الممثلين الممتازين بأشخاصهم .

ومع ما يقوله في مقدمته من أنه وشحه بالآيات ومحاسن الكنىيات ورصعه بالأمثال العربية واللطائف الأدبية والأحاجي النحوية والفتاوی اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب الحبرة . مع ذلك كله لم تتعصب الكتابة عنده ، ولم تتحول إلى ما يشبه المسرايد المظلمة ، بل ظل لها رشاشة وخفة هي خفة أديب ، عشق مهنته ، واطلع على أسرارها ، وأذاعها في هذا الأسلوب الأخاذ ، الذي استعان في صوغه بسرعة خاطره .

ونحن لا نلاحظ هذه السرعة وحدتها في تدفق الألفاظ عليه ، يختار منها أجودها ، وأحكمها ، وأدقها وأضبطها ، بل نلاحظها في شيء ملهم هو تفتح ذهنه بالفكاهة ، حتى لا يبالغ إذا قلنا إنه طبع أسلوب مقاماته بروح فكاهة ، وهو روح يسود في جوانب مختلفة في مقاماته ، وخاصة تلك التي يظهر فيها أبو زيد مع زوجته أو مع ابنته ، وقد اختصم مع أحدهما ، معملاً حقيقته ، ومرتفعاً إلى قاض أو وال أو صاحب شرطة ليفصل بينهما .

ويبرز هذا الروح الفكه في المقامات الثلاثة عشرة ، وهي المقامات البغدادية ، وفيها يتراعي أبو زيد امرأة عجوزاً ، يتبعها أطفال ، وهي تستجدى للبياتى ، ناعية حظها ، باكية أهلها وبعلها . وتتجلى الفكهـة أقوى ما تكون في المقامات الثلاثين ، وهي المقامات الصورـية ، وفيها نرى الحارث بن همام يشهد عقد زواج لعروس من آل ساسان أصحاب الـكـدية والـشـحـاذـة ، ويعقد العقد شيخـهم المفضل أبو زيد السروجي ، وهي تجري على هذا النـطـق :

« حـكـى الحـارـثـ بنـ هـمـمـاـمـ ، قالـ : اـرـتـحـلـتـ منـ مـدـيـنـةـ (١)ـ المـنـصـورـ إـلـىـ بـلـدـةـ صـوـرـ (٢)ـ ، فـلـمـاـ حـصـلـتـ بـهـاـ ذـاـ رـفـعـةـ وـخـفـضـ (٣)ـ ، وـمـالـكـ رـفـعـ »

(١) مدينة المنصور : بغداد ، لأنـهـ بـاـنـيـاـ . (٢) صـوـرـ : بلـدـةـ عـلـىـ سـاحـلـ لـبـنـانـ .

(٣) خـفـضـ : نـعـمـةـ .

وخفَّضَ<sup>(١)</sup> ، تُقْتَلَى مصر تَوْقَانَ السقِيمَ إِلَى الْأُسَاءَ<sup>(٢)</sup> ، والكَرِيمَ إِلَى  
الْمُواسَاءَ ، فَرَفَضَتْ<sup>(٣)</sup> عَلَاقَةَ<sup>(٤)</sup> الْاسْتِقَامَةَ ، وَنَفَّضَتْ عَوَائِقَ الْإِقَامَةَ ،  
وَاعْمَرَوْرَيْسَ<sup>(٥)</sup> ظَهَرَ ابْنَ النَّعَامَةَ<sup>(٦)</sup> ، وَأَجْهَمَلَتْ<sup>(٧)</sup> نَحْوَهَا إِجْنَاحَ النَّعَامَةَ ،  
فَلَمَّا دَخَلْتُهَا بَعْدَ مَعَانَةِ الْأَيْنِ<sup>(٨)</sup> ، وَمَدَانَةِ الْحَيْنِ<sup>(٩)</sup> كَلِفْتُ بِهَا كَلَافَ  
الشَّهْوَانَ بِالْاَصْطِبَاحِ<sup>(١٠)</sup> ، وَالْحِيرَانَ بِتَفْنِسِ الصَّبَاحِ . فَبَيْنَا أَنَا يَوْمًا بِهَا أَطْوَفَ ،  
وَتَحْتَ فَرْسَ "قَطْطُوف"<sup>(١١)</sup> ، إِذْ رَأَيْتُ عَلَى جُرْدَ<sup>(١٢)</sup> مِنَ الْحَيْلِ ، عُصْبَيَّةَ  
كَمْصَابِيحِ اللَّيلِ ، فَسَأَتُ لِلنِّجَاعِ<sup>(١٣)</sup> النِّزْهَةَ ، عَنِ الْعُصْبَةِ وَالْوِجْهَةِ ،  
فَقَيْلَ : أَمَا الْقَوْمُ فَشَهُودُ ، وَأَمَا الْمَقْصِدُ فَإِمْلَاكُ<sup>(١٤)</sup> مَشَهُودُ ، فَسَحَّادَ تَسْنَى  
مَيْعَةَ<sup>(١٥)</sup> النَّشَاطِ ، عَلَى أَنْ سَرَّتُ مَعَ الْفَرَّاطِ<sup>(١٦)</sup> ، لَأَفُوزَ بِحَلَّوَةِ الْلَّقَاطِ<sup>(١٧)</sup> ،  
وَأَحْوَزَ حَلَّوَاءَ السَّهَاطِ<sup>(١٨)</sup> ، فَأَفْضَيْنَا بَعْدَ مَكَابِدَةِ الْعَنَاءِ ، إِلَى دَارِ رَفِيعَةِ  
الْبَنَاءِ ، وَسِيَّعَةِ الْفَنَاءِ ، تَشَهِّدُ لِبَانِيهَا بِالثَّرَاءِ وَالسَّنَاءِ . فَلَمَّا نَزَّلْنَا عَنْ صَهَّوَاتِ<sup>(١٩)</sup>  
الْحَيْلِ ، وَقَدْ مَسَنَا الْأَقْدَامَ لِلدخولِ ، رَأَيْتُ دِهْلِيزَهَا مَجْلَلاً<sup>(٢٠)</sup> بِأَطْهَارِ<sup>(٢١)</sup> مَخْرَقَةَ ،  
وَمَكْلَلاً بِمَخَارِفِ<sup>(٢٢)</sup> مَعْلَقَةَ ، وَهُنَاكَ شَخْصٌ عَلَى قَطِيفَةِ ، فَوْقَ دَكَّةِ اطْبِيقَةِ ،  
فَرَابِيَ<sup>(٢٣)</sup> عَنْوَانُ الصَّحِيفَةِ ، وَمَرَأَى هَذِهِ الْطَّرِيفَةِ<sup>(٢٤)</sup> ، وَدَعَانِي التَّطِيْرُ بِتِلْكَ

(١) الرفع والخفض : الإعلاء والمحظ . (٢) الأُسَاءَ : جمع آس وهو الطيب .

(٣) رفضت : تركت . (٤) علاقَةَ : أسباب .

(٥) اعوريت الدابة : ركبها . (٦) ابن النعامة : اسم فرن في الجاهلية .

(٧) أبغلت : أسرعت ، ويضرب المثل بالنعامة في السرعة . (٨) الأين : التعب .

(٩) الحين : الموت والملائكة . (١٠) الاصطباح : شرب الخمر في الصباح .

(١١) قطوفه بطيء . (١٢) الجرد : جمع أجرد ، وهو قصير الشعر ، وذلك من صفات

الْحَيْلِ الْكَرِيمَةِ . (١٣) انتِجاع : طلب . (١٤) إِمْلَاكَ : تزويع . (١٥) ميْعَةَ

النَّشَاطِ : سورته وحدته . (١٦) الفرات : جمع فارط وهو الذي يسبق القوم إلى الماء والكلأ .

(١٧) الْلَّقَاطَ : ما يلتقط في العرس . (١٨) السهاط : الخوان المددود في الولائم .

(١٩) صهوات : ظهور . (٢٠) مجْلَلاً : مغطى . (٢١) أطْهَارَ : حرق

جَثِيَّابَ بِالْيَةِ . (٢٢) الْخَارِفَ : جمع مخوف ، وهو النَّبِيلُ الذي يضع فيه الشحاذ طعامه .

(٢٣) رابي : شككني ، وكني بعنوان الصحفة عمراً رأه بادئ بدءه . (٢٤) الْطَّرِيفَةَ : العجيبة .

المناكس<sup>(١)</sup> إلى أن عمدت الملك الحالس ، فعممت عليه بمصرف الأقدار ، لَيَعْرُفَنَّ مِنْ رَبِّ هَذِهِ الدَّارِ؟ فَقَالَ : لَيْسَ لَهَا مَالِكٌ مُعِينٌ ، وَلَا صَاحِبٌ مُبِينٌ ، إِنَّمَا هِيَ مَصْطَبَةُ الْمُقَسِّفِينَ<sup>(٢)</sup> وَالْمُدْرَوْزِينَ<sup>(٣)</sup> ، وَلِيَجِدَ<sup>(٤)</sup> الْمُشَقْشِقِينَ<sup>(٥)</sup> وَالْمُسْجَلَوْزِينَ<sup>(٦)</sup> ، فَقَلَّتُ فِي نَفْسِي : إِنَّا لِلَّهِ عَلَى ضَلَالِهِ الْمَسْتَعِنُ ، وَإِنْحَالُ<sup>(٧)</sup> الْمَرْعَى ، وَهَسَمَتُ فِي الْحَالِ بِالرُّجُعِيِّ ، لَكُنِّي أَسْتَهْجَنْتُ الْعُودَ مِنْ فَسْوَرِي وَالْقَهْقِرَةِ<sup>(٨)</sup> دُونَ غَيْرِي ، فَوَلَّتُ<sup>(٩)</sup> الدَّارَ مُتَجَرِّعًا لِلْغَصَصِ ، كَمَا يَلْجُعُ الْعَصْفُورُ الْقَفْصَ ، فَإِذَا فِيهَا أَرَائِكَ<sup>(١٠)</sup> مِنْ قَرْشَةٍ ، وَطَنَافِسٍ<sup>(١١)</sup> مَفْرُوشَةٍ ، وَنَمَارِقَ<sup>(١٢)</sup> مَصْفُوفَةٍ ، وَسَجَوْفَ<sup>(١٣)</sup> مَرْصُوفَةٍ ، وَقَدْ أَقْبَلَ الْمُسْمِلِكَ<sup>(١٤)</sup> يَمِيسُ<sup>(١٥)</sup> فِي بُرْدَتِهِ ، وَيَتَبَاهِيَنَّ<sup>(١٦)</sup> بَيْنَ حَفَدَتِهِ<sup>(١٧)</sup> ، فَجِينَ جَلَسَنَ كَأَنَّهُ ابْنُ<sup>(١٨)</sup> مَاءِ السَّمَاءِ ، نَادَى مَسْنَادَ مِنْ قَبْلِ<sup>(١٩)</sup> الْأَحْمَاءِ : وَحْرَمَةِ سَاسَانَ أَسْتَاذَ الْأَسْتَاذِينَ ، وَقُدْوَةِ الشَّهَادَيْنَ ، لَا عَقَدَ هَذَا الْعَقْدَ الْمَبْجُلَ ، فِي هَذَا الْيَوْمِ الْأَغْرِيَ الْمَبْجُلَ ، إِلَّا الَّذِي جَالَ وَجَابَ<sup>(٢٠)</sup> ، وَشَبَّ فِي الْكُدُّيَّةِ وَشَابَ . فَأَعْجَبَ رَهْطَ الصَّهْرِ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ ، وَأَذِنَوا فِي إِحْضَارِ الْمَنْصُوصِ<sup>(٢١)</sup> عَلَيْهِ . فَبَرَزَ حِينَئِذٍ شِيخٌ قَدْ أَمَّالَ الْمَلَوَانَ<sup>(٢٢)</sup> ثَقَامَتِهِ ، وَنُورَ الْفَتَيَانِ شَغَامَتِهِ<sup>(٢٣)</sup>

(١) المناكس : الأحوال المنحوسة . (٢) المقفين : الشاذين .

(٣) المدروزين : أصحاب الحرف الدنيا . (٤) ولية : مدخل .

(٥) المشققين : المتفاخصين بالكلام وهم أهل الكدية والشحادة . (٦) الجلوز : اصطلاح عند أهل الكدية لمن يتحدث منهم عن فضائل الصحابة . (٧) إدخال : جدب .

(٨) القهقرة : الرجوع . (٩) بليت : دخلت . (١٠) أرائك : أسرة .

(١١) طنافس : بسط . (١٢) النمارق : الوسائل . (١٣) سجوف : ستائر .

(١٤) الملك : العروس . (١٥) يميس : يتبعثر .

(١٦) يتبهنس : يميس . (١٧) الخفدة : الخدم والأتباع ، جمع حافد . (١٨) ابن ماء السماء : ملك من ملوك القيمة في الجاهلية وهو المنذر بن النعسان . (١٩) الأحاء : الأقارب للزوج والزوجة . (٢٠) جاب الطريق : قطعها . (٢١) المنصوص عليه : هو شيخ أهل الكدية المذكور آنفًا . (٢٢) الملوان : الليل والنهر وكذلك الفتيان .

(٢٣) ثقامة : شبيه وأصل الثغامة : شجرة ذات زهر أبيض .

فتباشرت الجماعةُ بِإقباله ، وتبادرت إلى استقباله ، فلما جلس على زُرْبِيَّتِه<sup>(١)</sup> ، وسكتت الضوضاءُ لهيته ، ازدلف<sup>(٢)</sup> إلى مَسَنْدِه ، ومساحَ سَبَلَتَه<sup>(٣)</sup> بيده ، ثم قال :

الحمد لله المبتدئ بالإفضال ، المبتدع<sup>(٤)</sup> للسؤال<sup>(٥)</sup> ، المتقرّب إليه بالسؤال ، المُؤمِّل لتحقيق الأمال ، الذي شرع الزكاة في الأموال ، وزجر عن نَهَر<sup>(٦)</sup> السؤال ، وندَب<sup>(٧)</sup> إلى مواساة المضطرب ، وأمر بإطعام القانع<sup>(٨)</sup> والمُعتمر<sup>(٩)</sup> ، ووصف عباده المقربين في كتابه المبين ، فقال وهو أصدق القائلين ، والذين في أموالهم حَقٌّ معلوم ، للسائل والمحروم<sup>(١٠)</sup> ، أَحْمَدَهُ على ما رزق من طُعمَةَ هَسْنَيَّة ، وأَعْوَذُ به من استماع دعوة بلائيَّة ، وأَشَهَدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهًا يجزي المتصدقين والمتصدقات ، ويَمْحُق الربا ويُرْبِّي<sup>(١١)</sup> الصدقات ، وأَشَهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُ الرَّحِيم ، ورسوله الكَرِيم ، ابتعثه ليَسْنُسخ الظلمة بالضياء ، وينتصف للفقراء من الأغنياء ، فرفق صلَّى الله عليه وسلم بالمسكين ، وخفض<sup>(١٢)</sup> جناحه للمُسْتَكين ، وفرض الحقوق في أموال المُشرِّين ، وَبَيَّنَ ما يحبُّ للمُكْثِرين على المكْثَرِين ، صلَّى الله عليه صلاةً تُحْظِيه بالزَّلْفَة<sup>(١٣)</sup> ، وعلى أصفيائه أهل الصفة<sup>(١٤)</sup> . أما بعد فإن الله تعالى شرع الزواج لتتغفَّفوا ، وسَنَّ التناسل لكي تتضاعفوا ، فقال سُبحانَه لترعوا : ( يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وجعلناكم

(١) الزرية : بساط منقوش . (٢) ازدلف : اقترب .

(٣) السبلة : الحياة . (٤) المبتدع : المبتدئ .

(٥) النوال : العطاء . (٦) نهر : زجر . (٧) ندب : حرض وحبب .

(٨) القانع هنا : السائل . (٩) المعتز : الذي يتعرض للسؤال ولا يسأل .

(١٠) المحروم : الذي حرم الرزق . (١١) يربِّي : يزيد وينمى .

(١٢) خفض الجناح : كنابة عن التواضع . (١٣) الزلفة : القرب من الله .

(١٤) أهل الصفة : جماعة من المهاجرين جعلهم الرسول ضيوفاً على الإسلام لفقرهم وحاجتهم .

شعوبًا وقبائل لتعارفوا). وهذا أبو الدراج<sup>(١)</sup> ولاج<sup>(٢)</sup> بن خرّاج ، ذو الوجه الواقح ، والإفك الصراح<sup>(٣)</sup> ، والهريـر<sup>(٤)</sup> والصيـاح ، والإبرـام<sup>(٥)</sup> والإـلاح ، يخطـب سـليـطة<sup>(٦)</sup> أـهـلـهـا ، وشـريـطة<sup>(٧)</sup> بـعـلـيـها ، قـسـتبـسـ بـنـتـ أـبـيـ العـسـتبـسـ ، لـمـ بـلـغـهـ مـنـ التـحـافـهـ بـالـحـافـهـ<sup>(٨)</sup> ، وإـسـرافـهـ فـيـ إـسـفـافـهـ وـانـكـماـشـهـ عـلـىـ مـعـاشـهـ ، وـانـعـاـشـهـ عـنـدـ هـرـاشـهـ<sup>(٩)</sup> ، وـقـدـ بـذـلـ لـهـ مـنـ الصـدـاقـ<sup>(١٠)</sup> شـلـاقـ<sup>(١١)</sup> وـعـكـازـاـ ، وـصـقـاسـاعـاـ<sup>(١٢)</sup> وـكـرـازـاـ<sup>(١٣)</sup> فـرـوـجـوـ زـوـاجـ مـيـشـلـهـ ، وـصـلـوـاـ حـبـلـكـمـ بـحـبـلـهـ ، وـإـنـ خـفـتـ عـيـةـ<sup>(١٤)</sup> فـسـوـفـ يـغـيـبـكـمـ اللـهـ مـنـ فـضـلـهـ ، أـقـولـ قـوـلـ هـذـاـ وـأـسـغـفـرـ اللـهـ الـعـظـيمـ لـلـكـمـ ، وـأـسـأـلـهـ أـنـ يـسـكـثـ فـيـ الـمـصـاطـبـ نـسـلـكـمـ ، وـيـحـرـسـ مـنـ الـمـعـاطـبـ شـمـلـكـمـ .

فلـمـ فـرـغـ الشـيـخـ مـنـ خـطـبـتـهـ ، وـأـبـرـمـ<sup>(١٥)</sup> لـلـخـتـمـ<sup>(١٦)</sup> عـقـدـ خـطـبـتـهـ<sup>(١٧)</sup> ، تـسـاقـطـ مـنـ النـثـارـ<sup>(١٨)</sup> ، مـاـ استـغـرـقـ حـدـدـ الإـكـثـارـ ، وـأـغـرـىـ الشـيـخـ بـالـإـيـثـارـ<sup>(١٩)</sup> ، ثـمـ نـهـضـ الشـيـخـ يـسـتـحـبـ ذـلـاـلـهـ<sup>(٢٠)</sup> ، وـيـقـدـمـ أـرـاذـلـهـ<sup>(٢١)</sup> . قالـ الـحـارـثـ اـبـنـ هـسـمـاـمـ :

فتـبـعـتـهـ لـأـنـظـرـ عـرـجـةـ<sup>(٢٢)</sup> الـقـوـمـ ، وـأـكـمـلـ بـهـجـةـ الـيـوـمـ ، فـعـاجـ<sup>(٢٣)</sup> بـهـمـ

(١) سـمـاهـ بـهـذاـ الـاسـمـ كـنـيـةـ عنـ أـنـهـ كـثـيرـ الـدـرـجـ وـالـسـمـىـ فـيـ الـطـلـبـ .

(٢) أـرـادـهـ كـثـيرـ الـوـلـوجـ وـالـخـرـوجـ فـيـ الشـحـاذـةـ . (٣) الإـلـفـ الصـرـاحـ :

الـكـذـبـ الـواـضـحـ . (٤) الـهـرـيرـ : مـتـابـعـ الـصـيـاحـ . (٥) الـإـبـرـامـ : الـإـثـقـالـ .

(٦) السـلـيـطـةـ : الـلـحـاـجـ طـوـيـلـةـ الـلـسانـ . (٧) شـرـيـطـهـ بـعـلـهـ : يـرـيدـ أـهـلـهـ عـلـىـ وـقـقـهـ زـوـجـهـاـ . (٨) الـإـلـحـافـ : الـإـلـحـافـ . (٩) الـهـرـاشـ : الـمـخـاصـمـ .

(١٠) الصـدـاقـ : الـمـهـرـ . (١١) الشـلـاقـ : الـخـلـاءـ . (١٢) الصـقـاعـ : الـخـرـقـةـ تـضـعـهـاـ الشـحـاذـةـ عـلـىـ رـأـسـهـاـ . (١٣) الـكـرـازـ : الـكـوـزـ وـقـيـلـ الـقـارـوـرـةـ . (١٤) الـعـيـلـةـ : الـفـقـرـ .

(١٥) أـبـرـمـ : أـحـكـمـ . (١٦) الـخـنـنـ : الـصـهـرـ . (١٧) الـخـطـبـةـ : بـكـسـرـ الـخـاءـ طـلـبـ الـتـزوـيجـ . (١٨) الـثـارـ : الـدـرـاهـمـ الـتـىـ تـنـتـرـ فـيـ الـعـقـدـ . (١٩) الـإـيـثـارـ : التـفـضـلـ وـالـبـذـلـ .

(٢٠) الـذـلـاـلـ : أـسـافـلـ الـثـوـبـ . (٢١) أـرـاذـلـهـ : يـرـيدـ أـنـ يـتـقدـمـ مـعـهـ مـنـ الـأـرـاذـلـ .

(٢٢) عـرـجـةـ : وـقـفـةـ . (٢٣) عـاجـ : مـالـ .

إلى سهاط زينته طهاته ، وتناصفت<sup>(١)</sup> في الحسن جهاته ، فجئن ربَّع<sup>(٢)</sup> كلُّ شخص في ربِّضته ، وطفق يترَّعْ<sup>(٣)</sup> في روضته ، انسَلَّمَتْ من الصفَّ ، وفررتُ من الرَّحْفِ .

فحانت<sup>(٤)</sup> من الشِّيخ لفتَّةً<sup>(٥)</sup> إلىَّ ، ونظرَةً هجم بها طَرْفُه علىَّ ، فقال له : إلىَّ أين يا بَرَّم ؟ هلا عاشرت معاشرةً من فيه كَرَم ، فقلت : والذِّي خلقها<sup>(٦)</sup> طباقاً ، وطَبَقَهَا<sup>(٧)</sup> إشراقاً ، لا ذَقْتُ لَمَاقَا<sup>(٨)</sup> ، ولا لُسْتُ رُفَاقَا ، أو<sup>(٩)</sup> تخبرني أين مَدَبَّ صبَاك ؟ ومن أين مَهْبَّ صبَاك<sup>(١٠)</sup> ؟ فتنفَّسَ الصَّعَداءَ مراً ، وأرسل البَكَاءَ مِدْرَاراً<sup>(١١)</sup> ، حتى إذا استنزف الدَّمَّ ، استَنْصَتْ<sup>(١٢)</sup> الجَمْعُ ، وقال لي : أَرْعَنِي<sup>(١٣)</sup> السَّمْعُ :

مَسْقَطُ الرَّأْسِ سَرْجُ <sup>(١٤)</sup>	وَبَهَا كُنْتُ أَمْوَجُ <sup>(١٥)</sup>
بَلْدَةً يَوْجَدُ فِيهَا <sup>(١٦)</sup>	كُلُّ شَيْءٍ وَيَرْوَجُ <sup>(١٧)</sup>
وَرْدُهَا مِنْ سَلْسَبِيلٍ <sup>(١٨)</sup>	وَصَاحَارِيهَا مَرْوَجٌ <sup>(١٩)</sup>
وَبَنُوهَا وَمَغَانِيَ	هُمْ نَجَّومٌ وَبَرْوَجٌ
حَسِيدَاهَا نَفْحَةُ رَيَّاً	هَا وَمَرَّاهَا الْبَهِيجُ
وَازَاهِيرُ رُبَاهَا	حِينْ تَنْجَابُ <sup>(٢٠)</sup> الشَّلْوَجُ
مِنْ رَآهَا قَالَ : مَرْسَى	جَنَّةُ الدُّنْيَا سَرُورُجُ

(١) تناصفت : تساوت .

(٢) ربَّع : جلس ، والربضة : مكان الجلوس . (٣) يربع : يأكل .

(٤) حانت : اتفقت . (٥) يريد خلق السموات بعضها فوق بعض .

(٦) طبقها : ملأها . (٧) اللماق : القليل من الأكل والشرب . (٨) لست :

طعْت . (٩) أو هنا بمعنى إلا أن . (١٠) الصبا : ربيع لينة . يريد من أين مجئتك .

(١١) مدراراً : غزيراً . (١٢) استنصت : طلب إنصات الجميع . (١٣) أرعنى :

السع : ألق إلى سمعك . (١٤) سرْج : بلد أبي زيد التي ينسب إليه . (١٥) أمواج :

أضطراب وأنحراف . (١٦) يَرْوَج : يتيسر . (١٧) السَّلْسَبِيلُ : العذب البارد .

(١٨) المروج : البساتين . (١٩) تَنْجَابُ : تزاح وتفرق .

ولمن يتزاح عنـها  
ـفـرـات وـشـيـج (١)  
ـثـنـىـهـاـعـنـهـاـعـلـمـوـجـ (٢)  
ـعـبـرـةـتـهـمـسـيـ (٣)ـوـشـجـوـ  
ـكـلـمـاـقـرـ (٤)ـيـهـيـجـ  
ـخـطـبـسـهـاـخـطـبـمـسـرـيـجـ (٥)  
ـقـاصـرـاتـخـطـبـوـعـوـجـ (٦)  
ـلـيـتـيـوـيـ حـمـ (٧)ـلـاـ  
ـقـالـفـلـمـاـبـيـنـبـلـدـهـ،ـوـوـعـيـتـمـاـأـشـدـهـ،ـأـيـقـنـتـأـنـهـعـلـأـمـتـنـاـأـبـوـزـيدـ،ـ

ـوـإـنـكـانـهـرـمـقـدـأـوـقـهـبـقـيـدـ،ـفـبـادـرـتـإـلـىـمـصـافـحـتـهـ،ـوـاغـتـنـمـتـمـؤـاـكـلـتـهـ (٨)  
ـمـنـصـحـفـتـهـ (٩)ـ.ـوـظـلـمـتـمـدـةـمـقـائـمـبـعـصـرـأـعـشـوـ (١٠)ـإـلـىـشـوـاظـهـ (١١)،ـوـأـحـشـوـ  
ـصـدـقـتـهـ (١٢)ـمـنـدـرـرـأـفـاظـهـ،ـإـلـىـأـنـنـعـبـ (١٣)ـبـيـنـاـغـرـابـبـيـنـ،ـفـفـارـقـتـهـ  
ـمـفـارـقـةـالـحـقـفـنـلـلـعـيـنـ»ـ.

ـوـوـاضـحـأـنـمـقـامـكـلـهـبـنـيـتـبـنـيـةـفـتـكـيـهـ،ـوـلـاـيـكـادـإـلـنـسـانـيـمـلـكـنـفـسـهـ  
ـمـنـضـحـلـكـحـيـنـيـبـدـأـأـبـوـزـيدـخـطـبـةـالـزـواـجـ،ـوـيـسـتـهـلـهـبـمـاـيـشـيرـإـلـىـعـوـزـ  
ـعـرـوـسـيـنـ،ـوـيـأـخـذـفـيـبـيـانـمـاـحـضـشـارـعـعـلـيـهـمـزـكـاـةـوـالـصـدـقـاتـ.  
ـوـمـاـزاـلـيـذـكـرـفـقـرـاءـوـمـاـلـهـمـمـنـحـقـوقـعـلـىـأـغـنـيـاءـ.

ـثـمـيـنـتـقـلـإـلـىـخـطـبـةـأـلـىـمـوـضـوـعـفـيـعـرـفـأـهـلـعـرـوـسـبـالـعـرـوـسـوـيـقـلـمـ  
ـلـهـشـحـاذـأـوـقـحـاـيـكـثـرـمـنـهـرـيـرـوـالـصـيـاحـ،ـوـيـتـحدـثـعـنـزـوـجـهـ،ـفـإـذـاـهـىـ  
ـمـنـطـيـنـهـ.ـوـيـذـكـرـمـهـ،ـوـكـلـهـمـنـأـدـوـاتـقـوـمـوـآـلـاـتـهـ.ـوـلـاـيـلـبـثـأـنـيـدـعـوـ

(١) النشيج . البكاء مع الصوت العالى .

(٢) الملوخ : جمع علچ ، وهو الضخم من العجم والروم ، وهو يريده هنا الروم الذين استولوا على سروج في بعض حروبهم ، وكان ذلك في زمن الحريري مؤلف المقامة .

(٣) تهمى : تسيل غزيرة . (٤) قر : سكن . (٥) مريح .

(٦) الترجي : الرجاء . (٧) سم : قضى وانتهى .

(٨) مُؤاكلته : الأكل معه . (٩) صحفته : إناوهه الذي يأكل فيه . (١٠) أعشو :

(١١) الشواوظ : هلب النار . (١٢) صدقي : يريده أذنف . (١٣) نعب : صاح .

المقامة

لهم بزيادة النسل الذى سيترىء فوق المصاطب ، مفتوح الأكف للشحاذة والسؤال .

ولا نشك فى أن هذا الأسلوب الفكه فى المقامات الحريرية كان أحد الأسباب المهمة فى ذيوعها وإقبال الناس عليها فى عصره وبعد عصره ، لأنهم وجدوا فيها ما يسلّيهم ويرفعه عنهم ، ويعينهم على احتفال أعباء الحياة ، ويحطّ عنهم بعض أثقالها .

على أننا نلاحظ أن الحريري لم يقصد بفكاهته إلى شيء من تقويم النفس وتربيتها ، وإنما قصد إلى المزول والترفية من حيث هما . ففكاهته فارغة من الفكرة ومن العمق والتحليل ، ومع ذلك فتحن نؤمن بذلكاته ويقطة ذهنه وسرعة خاطره .  
ولا تظهر سرعة خاطره فى فكهاته وحدها ، بل تظهر أيضًا فى تدفق الألفاظ عليه ، وتتدفق الأساليب والعبارات المتنقة ، وكأنما نخل كتب الأدب نخلا ، واصططى لنفسه منها أروع ما وجده فيها من صياغات ، وهى صياغات لا تحول إليه حتى يشتند بريقها ولمعانها بفضل ما كان يصلق فيها ، بل بفضل ما كان يضيف إليها من حلبات الصوت وتنميقات البديع .

والحريري لا يبارى فى انتخاب ألفاظه واختيار كلماته ، والمذلك كانت مقاماته فى رأى السابقين أبدع ما أنتجه العصور الوسطى ، وقد ظلت لها مكانتها السامية ، وظللت الأعناق تتمدد إليها فلا تطوططا ، إذ انتهت صاحبها إلى ذروة سامقة من ذرى الفن العربى .

وقد اتخذها الأدباء من عصره إلى عصرنا قبلتهم وكعبتهم ، فهم ينهاون منها ، وهم يوقرونها ويجلُّونها ، ويرون فيها آية الأدب الرفيع . ولم يكتفى الحريري فيها بأساليب النثر المدققة ، بل ذهب يوشيها أيضًا بأساليب الشعر ، فلألاها بالأبيات والمقطوعات ، التى تلمع وتتألق فى صفحاتها ، وقد بَسَّ فيها كثيراً من الحكم والنصائح التى تهدى فى دياجير الحياة .

وهذا كله هو الذى يستر صعوبات المقاومة عنده ، فما جاء به من ألعاب بلاغية ، وشعوذات لغوية أو فقهية أو نحوية أو لغاز ومعجميات ، كل ذلك تغمره أساليبه المنمقة البهيجية ، فلا يشلّ الحركة عنده . بل لا نزال حتى عصرنا نتملىّ بجمال ألفاظه وصياغاته ، كما كان يتملىّ بها معاصره ومن جاءوا بعده ، ولا نزال نعدها أجمل ميراث لغوىًّا ورثناه عن كُتابنا السالفين .

## مقامات مختلفة

### ١

#### على مر التاريخ

ليس الحريري أول من حاول تقليد بديع الزمان في صُنْع المقامات ، فن قبله حاول ذلك أبو نصر عبد العزيز بن عمر السعدي المتوفى سنة ٤٠٥ هـ وأبوا القاسم عبد الله بن محمد بن ناقيا المتوفى سنة ٤٨٥ .

وطُبِّعت لابن ناقيا تسع مقامات ، ومن يقرؤها يراه يتَّخذ بطلها شخصاً يسميه اليشكري ، أما الرواة فتعدُّدون . وهي تدور في أكثرها على الكُدُّية ، ولكن ليس فيها جمال اللُّفظ الذي نجده عند البديع أو عند الحريري ، ولعلها من أجل ذلك لم تشتهر في الناس .

وكان القدر ادَّخراً الحريري لينهض بهذا الفن إلى القمة التي كانت تتَّنَظَّر ، بحيث إننا لا نجد بعده من استطاع أن يخلق معه في الأفق الذي صعد إليه ، فقد ظهر دائمًا وبرز للعيان أن أجياله الأدباء الذين حاولوا تقليله لم تكن من القوة والمتانة بحيث يستطيع أصحابها أن يرتفعوا إلى الأوجاء العليا التي دوَّم فيها وسيَّبح في طبقاتها .

وربما كان أول من حاول تقليله في إصرار هو أبو الطاهر محمد بن يوسف السرّ قُسْطَنْي المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ، فقد اطلع على مقاماته ، فأنشأ خمسين مقامة معارضه لها أتعب فيها خاطره ، وكذا ذهنه وأسره ناظره ، وصعب على نفسه المسالك فيها ، فالترزم في نثرها ونظمها ما لا يلزم من تعدد القوافي واشتراط أن تكون من حرفين فأكثر . واتَّخذ راويته فيها المنذر بن حمام وجعل بطلها السائب ابن تمام . وسقطت هذه المقامات من يد الزمن فلم تصل إلينا .

وفي نفس التاريخ نجد الزمخشري يؤلف مقامات تدور كلها على الوعظ ،  
وليس فيها راوٍ ، ولا بطل ، بل يبدأها بخطاب نفسه ، وما يزال يعظ مذكراً  
بالآخرة ، رادعاً النفس عن شهواتها ، خاصماً لها أن تسلك السبيل السوىَّ الذى  
يؤدى بها إلى الفوز بنعيم الله ورضوانه . ويبدو أنه لم يكن في ذهنه أن يقلد  
مقامات الحريريَّ ، فقد كان يقول :

**أَقْسِمُ** بالله وآياته **وَمَشْعَرُ الْحَجَّ** وميقاته  
**إِنَّ الْحَرِيرَى حَرِيرٌ** بَأْن نكتب بالتبشير مقاماته

وكل ما في المسألة أنه استعار منه الاسم ليُطلقه على مجموعة من المواقع .  
وننقدم في القرن السادس فتجد الحسن بن صاف المصري الملقب بملك النحافة  
يُصنف مقامات على نسق المقامات الحريرية ، ويصنع صنيعه أبو العباس  
يعي بن سعيد بن ماري النصراوي الطبيب . واستهرت مقاماته باسم المقامات  
المسيحية ، قال ياقوت في معجمه : إنه أجاد فيها . وفي نهاية القرن نجد ابن  
البوزري يؤلف خمسين مقامة في موضوعات أدبية مختلفة ، ويسعى بها نحو  
الوعظ على نحو ما سعى الزخشري في مقاماته ، وكان يعاصره أبو العلاء أحمد  
ابن أبي بكر بن أحمد الرازى الحنفى الذى ألف ثلاثين مقامة طبعت في إستانبول  
مع مقامات ابن ناقيا في مجلد واحد ، ونراه يقول في مقدمتها إنه ألفها لقاضى  
القضاة أبي حامد محمد بن القاسم الشهير زوري ، وإنه سيحتذى فيها  
على مثال بديع الزمان والحريري وسيرويتها الفارس بن سَّام المصري وبطليها  
أبا عمرو التنوخى . ونراه يقلد الحريري في بعض ألعابه الأدبية كأن ينظم شعرًا  
كل لفاظه من ذوات الشين أو الصاد أو العين ، أو ينظم مقامة كل لفاظها  
من ذوات الطاء . وقد يجعل المقامة في وصف حمام أو محبرة أو دواة أو قلم  
أو فرس أو معركة . وهو في ذلك كله يثقل على النفس والأذن بما يستخدم  
أحياناً من كلمات نابية أو موغلة في الغرابة .  
ونمضي في القرون التالية للقرن السادس فتكثر المقامات ، ويكثر المقلدون ،

ويتسع الموضوع الذى تخوض فيه ، فقد يكون الحديث والفقه والنحو كما فى مقامات ابن الصيقل الجـــزـــى المتوفى سنة ٧٠١ هـ وعدها خمسون ، نسب روایتها إلى القاسم بن جـــرـــيـــال الدمشقـــى وحوالـــتها إلى أبي نصر المصرـــى . وقد يكون الموضوع وصف الحيوانات مثل مقامات ابن حبيب الحلـــبـــى المتوفى سنة ٧٧٩ وقد يكون وصف البلدان مثل مقامات ابن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ .

وربما كانت مقامات السيوطى المتوفى سنة ٩١١ أشهر المقامات التى صنفت في العصور الوسطى المتأخرة ، وهى أشبه ما تكون بالرسائل ، فليس فيها بطل ولا راو ، إنما هى رسائل مسجوعة ، قد تتحدث في موضوع خيالى مثل أنواع الطيب وفواىد كل نوع وفواخـــرـــه ، وأنواع الرياحين والرهور ودفاع كل نوع عن نفسه . وقد تتحدث في موضوع جدلـــى مما يتناقش فيه الفقهاء مثل أبوى الرسول وحكمهما في البعث والجزاء ، ومثل صوفية ابن الفارض وما اتهمـــه به خصوصـــه . وقد تتحدث في موضوع اجتماعى كالرخاء والغلاء . وهى بهذه الصورة أبحاث مسجوعة . وقد ملأـــها السيوطى بالحديث النبوـــى وبالمعلومات من جميع الفنون طبية وغير طبية . وما تزال اللغة العربية تستقبل هذه الألوان المختلفة من المقامات حتى يخرج العصر الحديث ، فيحاول غير واحد تقليـــد الحريرـــى ، ومن أشهر من قلدـــوه في القرن الماضى الشيخ حسن العطار في مصر والألوسى في العراق وفارس الشدياق وناصيف اليازجي في الشام .

ويجب أن نعرف أن تأثير الحريرـــى لا يقف عند من قلدـــوه في تأليف المقامات بل يمتد إلى كثيرين من الكـــتـــابـــات ، من قلدـــوه في طريقته . واعلـــ هذا التأثير الثاني أعمق من التأثير الأول ، لأنـــه يشـــيع في أعمال أدبية مختلفة . ويكتفى أنـــ نذكر أنـــ كـــتابـــ العربـــ المحدثـــين من نسمـــع بهـــمـــ في القرن الماضى وأوائل هذا القرن طبعـــوا جـــميعـــا أساـــلـــيهـــمـــ بـــطـــوابـــعـــهـــ . وما « ليالى سطـــيح » لحافظ إبراهـــيم و« حديث عيســـى بن هـــشـــام » لـــمحمدـــ المـــويـــلـــحـــى إـــلا ثـــمرةـــ من ثـــمارـــ تقليـــدـــ الحريرـــى والضرـــبـــ على نـــموذـــجهـــ في الأسلوبـــ والصـــياغـــةـــ .

## مقامة اليازجي

إنما نقف عند هذه المقامات لأن صاحبها نال بها قَصَبَ السبق لا بين معاصريه حسب ، بل بين كل من جاءوا بعد الحريري ، إذ عرف كيف يقلده ، وكيف يُحْكِمُ هذا التقليد ويضبطه ضبطاً دقيقاً .

وقد ولد ناصيف اليازجي سنة ١٨٠٠ م لأب طبيب على مذهب العرب في الطب ، وكان كاثوليكيّاً يقيم بكفر شيا في لبنان بالقرب من بيروت . وعَهِدَ إلى أحد القساوسة في القيام على تربية ابنه ، وعكف ناصيف على المكتبات في الأديار فنهل منها ما استطاع .

وكان فيه ذكاءً ولمعية ، فلم يلبث أن نبغ في الشعر ، وعلى عادة عصره كتب قصيدة في مدح الوالي ، وهو الأمير بشير الشهابيّ ، ووفد عليه ، وألقاها بين يديه فأعجب به ، ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى ألحقه بديوانه . فكث فيه حتى عزل الأمير سنة ١٨٤٠ .

وحينئذ نراه ينزل في بيروت ، ويُعْرَفُ فضله ، فتنتدب به المدارس المختلفة للعمل بها كما تنتدب الكلية الأمريكية ، ويراجع الترجمة التي نشرتها للكتاب المقدس . وما يزال عاكفاً على التدريس من جهة والتأليف من جهة ثانية حتى يلبي نداء ربه سنة ١٨٧١ .

ومن يرجع إلى مؤلفاته يقف على مدى ثقافته ونَوْعِها إذ يراه يؤلف في النحو مختصرآً أسماء « طوق الحمام » ، كما يؤلف أرجوزة قصيرة أسماءها « اللباب في أصول الإعراب » وأرجوزة طويلة أسماءها « جوف الفرا » ، وكتب عليها شرحاً أسماء « نار القراء في شرح جوف الفرا » . ويراه يؤلف في الصرف أرجوزة قصيرة أسماءها « لحة الطرف في أصول الصرف » وأرجوزة طويلة أسماءها « الخزانة » وكتب

لها شرحاً أسماه « الجُمَانة في شرح الخزانة ». ويؤلف في الفنين معاً « الجوهر الفرد ، وفصل الخطاب في أصول لغة الإعراب ». ويؤلف في العروض « الجامعة » وهي أرجوزة تتناول مصطلحاته ، وشرحها بما أسماه « اللامعة في شرح الجامعة »؛ ويؤلف في علوم البلاغة « عقد الجمان ، والطراز المعلم » كما يؤلف في الطب أرجوزة أسمها « الحجر الكريم في الطب القديم » .

وإنما ذكرنا هذا كله لندل على أن ناصيف ثقفت العلم العربي كما كان يفهم في عصره وقبل عصره ، فهو قد ألم إلاماً دقيقاً بكل المعارف العربية ، ولم يكتفى بذلك ، بل ألف فيها على طريقة القدماء مختصرات وأراجيز وشروحًا . ولما نشر المستشرق الفرنسي « سلفستر دى ساسي » مقامات الحريري أرسل له رسالة طويلة ذكر له فيها أغلاطه في نشرته . وحظيت هذه الرسالة بتقدير الناشر وغيره من المستشرقين ، وترجمت إلى اللغة اللاتينية .

فنحن إذن بإزاء شخصية طريفة آمنت بالثقافة العربية . ولم يفكر ناصيف في أن يتقن لغة من اللغات الأجنبية ، ولعله كان يحتقر هذه اللغات ، ويرى اللغة العربية كافية في ثقافة الأديب وتحريجه مثلاً رفيعاً من أمثلة الفن .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم موقفه وحياته في عصره ، فهو قانع بالعرب وثقافتهم ، وهو ابن بار بهم ، وبار بلغتهم ، لا يكاد يتصور فوقها لغة ، فهي أفضل اللغات ، وأدبها أفضل الأدب .

ونظر ، فوجد خير الناذج الأدبية فيها الشعر والمقامات ، فكتب غير قليل من الشعر ، ثم خالص للمقامة ، فقرر مقامات الحريري ، وما استحدثه الأدباء من بعده ، وما زال يكتُد ذهنه حتى صاغ مقامتم . وأسمها « مجمع البحرين » أخذنا من الآية الكريمة في القرآن : ( وإذا قال موسى لفتاه لا أبرح ، حتى أبلغ مجمع البحرين ) ويريد بالبحرين النظم والنشر .

ولم يكتب خمسين مقامة فقط كما كتب الحريري ، بل زاد عليه عشرة ، واتخذ راوية هو سهيل بن عباد وبطلا هو ميمون بن خرام ، وهو أديب

شحاذ من نوع أبي زيد السروجي وأبى الفتح الإسكندرى . وألصق به فى كثير من المقامات ابنته « ليلي » وغلامه « رجبا » على نحو ما صنع الحريري بأبى زيد إذ عرضه فى كثير من مقاماته ، وهو يتشارج مع زوجته أو مع تلميذه وتابعه . وقدم لعمله بمقيدة ، اعترف فيها متواضعاً بقصراً باعه عن الحريري وبديع الزمان ، وسي صنيعه ضرباً من الفضول . ثم انساب بين مقاماته مرقماً لها على نحو ما رقم الحريري ، ومتخذآ لها أسماء من البلدان غالباً ، واشتراك معه في غير اسم . ونفس الصورة التي عُرض فيها ميمون تكون بذاتها صورة لأبى زيد فأحابيل الأخير ومكايده وطرق تنكره ، كل ذلك يطبق تطبيقاً على ميمون .

ونراه في المقام الأول يعرف بين الراوى والبطل ، بالضبط كما حاول الحريري في مقامته الأولى . فسهييل بن عباد يملّ الحضر ويميل إلى السفر ، ويختطف ناقة ، وما يزال يضرب في الفلاة حتى يهجم الليل ، فيرى ناراً مشبوبة وخيمة مضروبة فيميل إليها وينادي من القوم ؟ ويجيبه شخص :

إِنِّي مِيمُونُ بْنُ الْخَزَامِ وَهَذِهِ لِي لِي ابْنَى أَمَّى  
نَعَمْ وَهَذَا رَجُبٌ غَلَامٌ مَنْ رَأَى أَنْ يَدْخُلَ فِي ذَمَّى  
يَأْمَنْ مِنْ بِوائِقِ الْأَيَّامِ

ويتم التعارف بينهما . ثم تكون المقامات بعد ذلك ، ويتردد اللقاء والفرق بين الراوى والبطل حتى نصل إلى المقامة التاسعة والخمسين ، وهى المقام المكية ، وهناك بين المناسب والمشاعر يرى سهييل بن عباد ميموناً وابنته وغلامه ، ويصحبه إلى زيارة المدينة ، ويلاحظ عليه شيئاً من التغير ، إذ يراه يخطب في الناس واعظاً منذراً ، صادقاً في إنذاره ووعظه . ويختم ميمون خطبته بهذا الدعاء :

اللَّهُمَّ يَا سَابِعَ الْآَيَّالِ ، وَنَابِغَ الْإِيَّالَاءِ<sup>(١)</sup> ، هَبْ لَنَا قُلُوبًا طَاهِرَةً ، وَعَيْنَاتٍ سَاهِرَةً ، وَأَنْفُسًا عَفِيفَةً ، وَأَنْسُسًا حَصِيفَةً ، وَأَحْلَاقًا سَلِيمَةً ، وَنِيَّاتٍ مُسْتَقِيمَةً ،

(١) نابغ الإيالاء : ظاهر الإحسان .

ويسِّرْ لَنَا تُوبَةً صادقةً، وندامةً حاذقةً. وسيرة هادبةٍ، وعيشة راضيةٍ، وعاقبة حميدةٍ، وخاتمة سعيدةٍ . . . .

واوضح أنه في هذا الدعاء يطلب التوبة من ربه ، ويندم على ما قدَّم من ذنبه . وبذلك يُعدُّنا اليازجي للإشراف على الحلقة الأخيرة من مقاماته . وفي المقابلة التالية للستين ، وهي المقابلة القدسية ، يلتقي سهيل بن عباد بصاحبه في المسجد الأقصى ، والناس قد تجمعوا عليه ، وهو يعظهم ويحذرهم عذاب النار ، وسوء عقبي الدار . وينظر إلى راويته ، فيذكر ما ارتكب من الأوزار ويتبَّع إلى الله توبَةً نصوحًا ويُخفي عن الأ بصار . حتى إذا جنَّ الليل سمعه سهيل ينشد :

قم في الدجى يا أيها المتعبدُ  
قم وادع مولاك الذى خلق الدجى  
واستغفر الله العظيم بذلةَ  
وانسدَّم على ما فات وانسدَّب مامضى  
واصرَّع وقل : يا رب عفوك إننى  
حتى متى فوق الأسرة ترقدُ  
والصبح وامض فقد دعاك المسجدُ  
واطلب رضاه فإنه لا يحقدُ  
بالأمس واذكر ما يجيء به الغدُ  
من دون عَفْوِك ليس لي ما يعْضُدُ  
ويستمر في الدعاء والتضرع لربه لا يَسْتُر ولا يَمْلَأ ، فيعلم سهيل أنه قد تحولَ عن حاله ، ويلزمه شهراً ثم يودعه . وكان ذلك آخر عهدهما باللقاء .

ولعل القارئ قد لاحظ أن اليازجي في هذا كله يحاكي الحريري ، فهو يبدأ مثله بالتعريف بين الراوى والبطل في المقابلة الأولى ، وما يزال يتبع الفرصة للقائهما ، حتى يتجرد البطل عن عَرَض الدنيا ، ويندم على فعله ، ويتبَّع إلى ربه . ونفس التواضع الذي نلقاء عنده في فاتحة مقاماته وخاتمتها إنما يقلد فيه الحريري تقليداً واضحاً .

### خصائص وصفات في المقامات اليازجية

لأنماط إذا قلنا إن مقامة اليازجي تقليد دقيق لمقامة الحريري، فهي تطابقها من جميع الوجوه، تطابقها في صورة الراوى والبطل، وتطابقها في أن البطل أديب متسلّل، وتطابقها في أساليب تنكره وخصوماته مع ابنته وغلامه، وما يكون هناك من قاض ينظر في الخصومات.

وتطابقها أيضاً في الصياغة، فهي تدور بين السجع والشعر، وإن كنا نلاحظ أن الحريري يتتفوق في الطرفين جميـعاً، فسجعه أخف، وشعره أرثـق، وكأن المادة اللغوية **ذلـلت** له بأقوى وأروع مما **ذلـلت** للـيـازـجي، على الرغم من أنه حاول أن يكون صورة منه.

ولسنا نريد أن نزري على عمل اليـازـجي، ولا أن نقول إنه كان صورة سيئة للـحرـيرـي، فلعل لغتنا لم تعرف مقلداً لعمل فـنـي مـهـرـ في تقليده وبلغ منه كل ما أراده على نحو ما عرفت ذلك عند صاحبـناـ، فقد عـرـفـ كيف يصوغ نموذجه على نموذج الحريري، ويظفر لنفسـهـ بجملـةـ الخـصـائـصـ والـصـفـاتـ الـحرـيرـيـةـ: حتى القرآن الكريم الذي اقتبس الحريري منه اقتباساً واسعاً جاراه فيه اليـازـجيـ، وربما تفوق عليهـ فيـ كـثـرةـ ماـ اـقـتـبـسـ منهـ بلـ إنـ اسمـ مقـامـاتهـ استـعارـهـ كماـ مرـّـ بـنـاـ منـ لـفـظـ القرآنـ. وقد جـعـلـ بـطـلـهـ يـتـوـبـ فـيـ مـكـةـ ثـمـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ وـالـمـسـجـدـ الأـفـضـىـ.

وكأن اليـازـجيـ يـتخـلـلـ عنـ كـلـ شـيـءـ فـيـهـ ليـصـنـعـ المـقاـمـةـ بـالـذـوقـ الـحرـيرـيـ وـعـلـىـ السـنـ الـتـيـ وـضـعـهـ لـهـ. حتىـ عـصـرـهـ لاـ نـجـدـ لـهـ أـىـ صـدـىـ فـيـ مـقاـمـاتـهـ، وـكـذـلـكـ الـبـلـدـانـ الـتـيـ اـقـرـحـهـ لـهـ أـمـيـاءـ لـأـنـجـدـ لـهـ أـىـ أـثـرـ فـيـ عـمـلـهـ، فـلـيـكـنـ اـسـمـ المـقاـمـ الشـامـيـةـ أـوـ المـصـرـيـةـ أـوـ الـبـلـنـانـيـةـ. فـهـذـاـ الـاسـمـ لـاـ يـعـنـىـ عـنـدـ شـيـئـاـ، إـنـماـ هـوـ

بصدق صورة أدبية عامة يعرضها ، وتصادفت أن الحريري وبديع الزمان من قبله سمي مقامتهما باسم البلدان ، فاستنّ سنتهما واتبع قاعدهما .

وبنـى الحريري كثـيرـاً من مقاماته على المـواعظ والأـدعـيـة فـتـبعـهـ اليـازـجيـ فيـ غـيرـ مقـاماـتـ يـعـظـ وـيـذـكـرـ ، وـيـدـعـ النـاسـ إـلـىـ الـعـمـلـ الصـالـحـ ، وـرـفـضـ الدـنـيـاـ وـمـتـاعـهاـ ، وـانتـظـارـ ماـعـنـدـ اللهـ وـثـوـابـهـ ، وـالـأـمـلـ فـيـ جـنـتـهـ وـرـضـوـانـهـ . يـقـولـ فـيـ المـقـاماـتـ المـعـرـيـةـ عـلـىـ لـسـانـ مـيمـونـ ، وـقـدـ وـقـفـ بـيـنـ الـجـمـاهـيرـ خـطـبـيـاـ :

« اعلمـواـ أـنـ اللهـ قـدـ أـرـسـلـنـىـ إـلـيـكـمـ نـذـيرـاـ ، وـأـقـامـنـىـ بـيـنـكـمـ سـراـجـاـ مـنـيرـاـ ، لـأـذـكـرـكـمـ يـوـمـاـ عـبـوسـاـ قـسـمـ طـرـيرـاـ<sup>(١)</sup> ، فـلاـ تـغـفـلـوـ عـنـ ذـكـرـ شـرـبـ تـلـكـ الكـاسـ ، وـهـوـأـلـ ذـلـكـ الـيـوـمـ الـجـمـوعـ لـهـ النـاسـ ، وـاتـعـظـوـاـ بـعـنـ تـقـدـمـكـمـ مـنـ الـقـرـونـ وـالـأـقـرـانـ ، وـمـنـ درـجـ أـمـامـكـمـ مـنـ الـعـيـونـ وـالـأـعـيـانـ ، وـتـو~بـواـ إـلـىـ بـارـئـكـمـ وـانـدـمـوـاـ عـلـىـ مـاـ فـاتـ ، فـإـنـ اللهـ يـقـبـلـ التـوـبـةـ مـنـ عـبـادـهـ وـيـغـفـرـ عـنـ السـيـئـاتـ ، وـاعـتـدـمـوـاـ حـفـظـ الـفـرـوضـ وـالـسـيـنـ ، وـلـاـ تـسـلـوـواـ عـلـىـ خـضـرـاءـ الدـمـنـ<sup>(٢)</sup> ، فـإـنـ الـخـافـظـةـ عـلـىـ الـصـلـوـاتـ ، لـاـ تـفـيدـ مـنـ يـتـبـعـ الشـهـوـاتـ فـيـ الـخـلـوـاتـ ، وـمـكـابـدـةـ الـصـومـ ، لـاـ تـنـفعـ مـنـ يـؤـذـيـ الـقـوـمـ ، وـتـجـشـمـ الـحـجـ وـالـعـمـرـةـ<sup>(٣)</sup> ، لـاـ يـزـكـىـ شـارـبـ الـحـمـرـةـ ، فـلـيـسـ الـبـرـ أـنـ تـو~لـواـ وـجـوهـكـمـ شـطـرـ الـمـسـجـدـ الـحـرـامـ ، وـلـكـنـ الـبـرـ مـنـ اـتـقـىـ ، وـالـسـلـامـ ». وـوـاـضـحـ فـيـ هـذـهـ الـقـطـعـةـ كـثـرـاـ مـاـ اـسـتـعـارـهـ اليـازـجيـ مـنـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ ، وـلـمـ يـحـاـولـ أـنـ يـسـتـعـيرـ عـبـارـاتـهـ فـقـطـ ، بلـ حـاـولـ أـنـ يـجـعـلـ أـلـفـاظـهـ قـرـارـاـ لـصـيـاغـاتـهـ . وـهـوـ فـيـ هـذـاـ كـلـهـ إـنـمـاـ يـنـسـجـ عـلـىـ مـنـوـالـ الـحـرـيرـيـ ، وـقـدـ ذـهـبـ يـكـثـرـ مـثـلـهـ مـنـ الـأـمـالـ وـالـحـكـمـ ، بلـ حـاـولـ أـنـ يـتـفـوقـ عـلـيـهـ فـيـ هـذـاـ الـبـاحـبـ ، فـنـشـرـهـ فـيـ عـمـلـهـ بـأـوـسـعـ مـاـ نـشـرـهـ صـاحـبـهـ ، وـجـعـلـهـ مـوـضـوـعـاـ لـبـعـضـ مـقـامـهـ كـمـاـ فـيـ الـمـقـاماـتـ الـحـكـمـيـةـ وـالـأـدـبـيـةـ . وـيـظـهـرـ أـنـهـ أـعـجـبـ إـعـجـابـاـ شـدـيـداـ بـالـعـابـ الـحـرـيرـيـ الـبـلـاغـيـ الـتـيـ تـحدـثـنـا

(١) قـطـرـيرـاـ : شـدـيـداـ . (٢) خـضـرـاءـ الدـمـنـ : مـاـ يـخـضـرـ فـيـ الـنـبـتـ السـيـ . مـنـ الـبـاتـ ، وـهـوـ مـثـلـ ، أـىـ لـاـ تـفـرـواـ بـاـ قـدـ يـزـهـرـ فـيـ التـرـبـةـ الـحـبـيـثـةـ ، كـنـايـةـ عـنـ زـخـارـفـ الـدـنـيـاـ . (٣) الـعـمـرـةـ : الـحـجـ الـأـصـفـ .

عنها آنفًا ، فاحتذى على طريقته فيها ، وصبَّ على قوالبه . والمقامتان : الخامسة عشرة والعشرون هما المسرح الذي اختاره اليازجي ليظهر عليه هذه الألعاب السحرية . أما المقام الأول فأودعها قصيدة كل أبياتها عاطلة من النقط ، وثانية كل أبياتها منقوطة ، أو بعبارة أدق كل حروف أبياتها حالية بالنقط . وليس هذا حسب ، فقد أشد قصيدة الشطر الأول منها خالٍ من النقط والثاني حال به من مثل :

لَا لِعَهْدِ الْوَدِ رَاعٍ وَلَا فِي شَجَنٍ ذِي فَتْنَةٍ يُسْفِقُ  
فِحْرُوفُ الشَّطَرِ الْأَوَّلِ كُلُّهَا مَهْمَلَةٌ مِنَ النَّقْطِ ، وَحِرْفُ الشَّطَرِ الثَّانِي كُلُّهَا  
مَعْجَمَةٌ ، وَهُكْمًا بَقِيَةُ الْقَصِيدَةِ . وَلَمْ يَكْتُفِ بِذَلِكَ ، بَلْ ذَهَبْ يَنْظُمْ أَبْيَاتًا تَتَأَلَّفُ  
عَلَى التَّرْتِيبِ مِنْ كَلْمَةٍ مَعْجَمَةٍ وَأُخْرِيٍّ مَهْمَلَةٌ مِنْ مَثَلِ :

لَا تَنْتَقِيَ الْعَهْدَ فَتَشَفِّيَنِي وَلَا تُسْجِنِزُ الْوَعْدَ فَتَشَنِّيَ الْعِلَّا  
ثُمَّ أَتَبْعُهَا أَبْيَاتًا تَتَأَلَّفُ كَلْمَاتُهَا مِنْ حِرْفٍ تَعَاقِبُ بَيْنَ الإِهْمَالِ وَالْإِعْجَامِ .  
وَكَأَنَّمَا أَحَسَّ أَنَّهُ لَا يَزَالُ فِي حَدُودِ الْأَلْعَابِ الْحَرِيرِيَّةِ ، وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَثْبِتُ  
مَهَارَتَهُ ، فَابْتَكَرْ نَوْعًا سَاهَ عَاطِلُ الْعَاطِلِ . وَفِيهِ اشْتَرَطَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ لَا تَكُونَ  
الْحِرْفُ الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنْهَا الْأَبْيَاتُ مَهْمَلَةً فَقَطَ ، بَلْ يَكُونُ مَسْمَى الْحِرْفِ حِنْ  
نَطْقُ بَهْ خَالِيًّا مِنَ النَّقْطِ أَيْضًا ، فَالْحِرْفُ « دَالٌ » يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ الشَّرْطُ بِخَلَافِ  
حِرْفِ « عَيْنٍ » . وَعَلَى هَذَا الْقِيدِ نَظَمَ قَطْعَةً مِنْ هَذَا النَّمْطِ :

وَلَهُ صَوْلٌ وَطَـوْلٌ وَلَهُ صَدٌّ وَرَدٌّ  
وَكُلُّ ذَلِكَ لِيَرْهَنَ عَلَى مَقْدِرَتِهِ الْفَنِيَّةِ ، وَأَنَّهُ لَا يَقْلُ عَنِ الْحَرِيرِيِّ افْتَنَانًا وَاعْبًَا  
بِالْأَلْعَابِ وَالْعُقُولِ .

وَأَمَّا المقام العشرون فأودعها لُعْبةً مَا لَا يَسْتَحِيلُ بِالانْعِكَاسِ ، تَلَكُ الْلَّعْبَةُ  
الَّتِي ابْتَدَعَهَا الْحَرِيرِيُّ ، وَالَّتِي رَأَتْ مَعَاصِرِيَّهُ وَمَنْ جَاءُوا بَعْدِهِ حَتَّى عَصْرِ  
الْيَازِجيِّ ، وَهِيَ تَجْرِي عَلَى هَذَا الْمَثَالِ :

قمرٌ يُنْقِرُ طَرْفَ عَمْدًا مُشْرِقًّا رُشَّ ماءً دَمْعُ طَرْفِ يَرْمَقُ  
إذ تستطيع أن تقرأ البيت من آخره كما تقرؤه من أوله ، فلا تختلف  
اللفاظ ولا يختلف المعنى . وكان اليازجي أحسن أنه مسبوق بهذه اللعبة الحريرية ،  
فرأى أن يضيف إليها شيئاً ، وإذا هو يصل في بيتهن بـ *يُؤلفهما* إلى أنهما إن قرئا  
مستقيمين كانوا مدحأ على هذا النحو :

باهي المراحم ، لا بسٌ كَرَمًا ، قديمٌ مُسْتَندٌ  
بابٌ لـ كل مؤملٍ غُنمٌ لـ عمرك مُرْفِدٌ

فإن أنت عكستهما وقرأتهما من آخرهما إلى أولهما أصبحا هجاءً وذمماً على  
هذه الشاكلة :

دَنْسٌ مَرِيدٌ<sup>(١)</sup> قَامِرٌ<sup>(٢)</sup> كَسْبَ الْحَمَامِ لَا يَهَابُ  
دَفِرٌ<sup>(٣)</sup> مِكْرَرٌ<sup>(٤)</sup> مَعْلَمٌ<sup>(٥)</sup> كُلٌّ بَابٌ<sup>(٦)</sup>

وكرر هذه اللعبة في المقاومة الرجبية . واستطاع أن يصل إليها في المقاومة  
التغلبية عن طريق آخر هو أن تقرأ كلمات قطعة مدح مصححة فإذا هي  
هجاء . مثلاً هذا البيت :

لَا تُعْرَفُ الْأَقْدَارُ فِيهِمْ وَالرِّبَّ<sup>(٧)</sup> لَا يَبَالُونْ بِأَحْرَازِ النَّشَابِ  
يُصَحَّفُ وَيُحَرَّفُ ، فإذا هو على هذا النحو :

لَا تُعْرَفُ الْأَقْدَارُ فِيهِمْ وَالرِّبَّ<sup>(٨)</sup> لَا يَبَالُونْ بِأَحْرَازِ النَّسَبِ

وليس من ريب في أن اليازجي كان فطيناً متهى الفطنة ، وإلا ما استطاع  
أن يصل إلى مثل هذه اللعب التي كان يستطيع أن يخرجها من صندوقه اللغوي  
كلما ابتغى ذلك أو أراده .

(١) مرید : عاق . (٢) قامر : مقامر . (٣) دفر : دنس .

(٤) مكر : محارب . (٥) معلم : عليه سمة الحرب أى أنه يريد الشر دائماً .

(٦) نفل : فاسد . (٧) النشب : المال .

وقد رأى الحريري يعمد إلى الألغاز في بعض مقاماته ، فحاكاه أيضاً في هذا الجانب ، وعرضه مرة أو قل مرتين شعراً ، ومرة أخرى نثراً . أما الشعر في المقامة اللغزية والمقامة الحلبية . ومن ذلك هذا اللغز في القمر :

ومولود بدون أبٍ وأمٍ بلا قوتٍ يعيش ولا يموت  
له وجهٌ وليس له لسانٌ فيخبرنا ويلزمُه السكتُ

وأما الألغاز النثرية فنثرها في المقامة الحمويَّة ، وقد أظهر فيها تفتنَّاً ومهارة . ونظر فوجد الحريري يخص النحو والفقه بثلاث مقامات ، فعرض لمسائل فقهية في مقامته الإسكندرية ، ولكن في قلة ، وأشرك معها مسائل لغوية وبلاعية ؛ أما النحو فأثبتَ ، وهو المؤلف النحوي الكبير صاحب الأراجيز القصيرة والطويلة فيه ، أنه يبدِّل الحريري في التصنُّع له والتتكلف بلجمع مشاكله وطرحها ، تارة في صُور عبارات تقرأ بعض الكلمات فيها بجميع الحركات الثلاث كما في المقامة البغدادية ، وتارة بعرض أسئلة مختلفة كما في المقامة الكوفية والبحرية والسودانية . وعنى في المقامة الدمشقية بأن يرينا مقدراته على نظم قواعد النحو ، فأنشد فيها أرجوزة طويلة .

ولعل القارئ قد لاحظ أنه بالغ ، وشق على نفسه عرض كل ذلك في مقاماته ، وكان حريراً به أن يُسْتَحِي هذه الشلالات أو قل هذه العوائق عن طريقه ، ولكنه ظنها تحفة الفن ، فاعتنت بها وبالغ في استخدامها حتى لتصبح بعض مقاماته كأنها متون لبعض العلوم .

وليس علم النحو وحده هو الذي ظفر منه بهذه المبالغة ، فربما كان علم اللغة يتتفوق عليه إذ خصَّ اليازجي به اثنى عشرة مقامة ،نظم فيها كثيراً من الأسماء الخاصة ببعض الموضوعات ، وهي أسماء تفيدنا في معرفة معلومات كبيرة عن العرب وحياتهم قبل الإسلام وبعده . ونصرت بذلك مثالاً المقامة السادسة ، وهي المسماة بالخزرجية ، فإننا نجد فيها ميمون بن خرام يُسْأَل عن أسماء المطاعم ، فيجيب :

للطفل<sup>(٢)</sup> عند عارف الحقيقة .  
 وذو الحذاق<sup>(٣)</sup> حافظ القرآن  
 للعرس ، والميّت له الوَضِيمَةُ  
 وهلال رجب العصيره  
 وشُنْدُخ لما يتصل إذ وجده  
 ثم القرى للضيف عندما حضر  
 فإنها مآدبَة عند العرب  
 تُدعى ، وإن خَصَّتْ فتلك النَّسَرَى  
 وإن تعم دعوة فابحْفَسْلَى  
 واضح أنه لم يترك اسمًا لطعم يتمدّن في مناسبة إلا حشيده في هذه الأبيات ،  
 ويُسْأَلُ ميمون عن نيران العرب ، فينشد :

وذكر نار الْوَسْم<sup>(٥)</sup> بعدها جرى  
 والصَّيْد والحرُب لدى التزاحف  
 ونار راحلٍ كذا نار الأسد<sup>(٧)</sup>  
 فيجملة النيران هؤلاء<sup>(٩)</sup>  
 أول نارٍ عندهم نار القرى<sup>(٤)</sup>  
 ونار الاستسقاء<sup>(٦)</sup> والتحالف  
 ونار غَدْرٍ وسلامةٍ تُعدَّ  
 والنار للسلم<sup>(٨)</sup> والفتداء<sup>(٩)</sup>

وهذا إحصاء دقيق لنيران العرب ، فلم يترك ميمون ناراً إلا أحصاها . ويُسْأَلُ  
 عن ساعات النهار ، فيقول :

أولٌ ساعة من النهار هي الْبُكُور والبزوغ طار<sup>(١٠)</sup>  
 والرَّأْدُ والضَّحْجَى المُتَوْعَ بَعْدُ ظهيرةٌ ثم الزوالَ عَدَّوا

(١) الخرس : طعام الولادة . (٢) كانوا يعدون العقيقة عند حلق شعره .

(٣) الحذاق : اسم الطعام الذي كانوا يصنعونه حين يم الطفل حفظ القرآن .

(٤) القرى : الضيافة . (٥) الوسم : هي النار التي توقد ليحموا بها الميس الذى

يسعون به الإبل . (٦) الاستسقاء : دعاء وصلة يقوم بها المسلمون حين ينيب عنهم المطر .

(٧) نار الأسد : نار توقد لها حتى ينفر ويفر . (٨) السليم : الملدوغ .

(٩) يقال إن العرب كانوا يضيئون هذه النار إذا سبّت نساء منهم . (١٠) طار : حادث .

فالعصرُ فالأصيلُ ثم الطَّفَلُ وبالخدُورِ والغروبِ تكمل  
ويُسْأَلُ عن ساعات الليل ، فينشد :

أول ساعة من الليل الشَّفَقُ  
وبعدها العَشْوَةُ يُتلها الغَسْقُ  
فهَدَأَهُ هَمَّتْ شَرْعَ ثم قُلَّ  
جُنْحٌ وَزُلْفَةٌ هَرِيْعٌ يَارَجُلُ  
وبعد ذاك غَبَشٌ وَسَحَرٌ والصَّبَعُ الذَّى يَنْفَجِرُ  
وكأنما كان اليازجي معجمًا حَيَّا ، فهو حافظ لغائب اللغة وشواردها ، بل  
إن اللغة قد توزعت عنده على أثبات ، في كل ثَبَّتْ مجموعة منها . وانظر إلى  
ميون يُسْأَلُ عن رياح الجهات فيجيب :

ما هبَّ من شَرْقٍ فَذَلِكَ الصَّبا  
ثم الجَنْبُوبُ عن يَمِينٍ ذَهَبَا  
ثُمَّ الشَّمَالُ ، والدَّبُورُ وجَرَّاتُ  
نَكْبَاءُ بَيْنَ كُلِّ رِيحَيْنٍ سَرَّاتٍ  
فَذَلِكَ الأَزِيبُ ثم الصَّابِيَّةُ<sup>(١)</sup> فَاهْتَيْفُ ثم الْجَرِبِيَّاءُ آتِيَّهُ<sup>(١)</sup>

ويعجب السائل ، ويقول له : قد جلوتَ الرموز ، وفتحتَ الكنوز ، فهل  
تعرف أيام بَرَد العجوز ، فينشد :

صِنٌّ وَصَنْبَرٌ وَبَرٌّ يَذْكُرُ  
وَبَعْدِهِ الْأَمِرُّ وَالْمُؤْسَمُ  
كَذَا مَعْلَلٌ وَمُطْفَفِي الْجَسَمُ  
هَاتِيكَ أَيَّامُ الْعَجُوزِ فَادِرٌ  
فيقول السائل : حُبِيَّتْ يا قطبَ العَرَاقِ ! فَأَسْمَاءُ خَيلِ السَّبَاقِ ؟ فيجيبه :

أُولُّ سَابِقٍ هُوَ الْمُسْجَلِيُّ ثُمَّ الْمُصَلَّى بَعْدِهِ الْمُسْلَلِيُّ  
تَالٌ وَمَرْتَاحٌ عَلَيْهِ يَقْبَلُ  
وَالْعَاطِفُ الْحَظَى وَالْمُؤْمَلُ  
كَذَلِكَ الْلَّاطِيمُ وَالسُّكَيْتُ  
فَاحْفَظْ فَمَا أَعْطَيْتُ قَدْ أَعْطَيْتُ

وهكذا تتنظم المقامات الخزرية كل هذه المسائل اللغوية ، وكأنه لا يريد  
بمقامته أن يعلم التلميذ الأسلوب الأدبي حسب ، بل هو يقصد قصداً إلى تعليمه

(١) يشير في البيت إلى أن الأزيب : ربيع بين الصبا والجنوب ، أما الصابية فيبين الصبا  
والشمال ، وأما الحيف فيبين الجنوب والدبور ، وأما الجزيباء فيبين الشمال والدبور .

اللغة وعوتها وما لا يعرفه إلا خاصة الخاصة . . . ولنست المقامـة الثالثـة عشرـة بأقل حشدـاً من هذه المقامـة الخـزرجـية لـمسائلـ اللـغـة ، وقد بدأـ فيها بـنـظمـ مشـاهـيرـ العربـ الـذـينـ تـرـسـلـ بـهـمـ الأـمـثالـ مـنـ مـثـلـ السـمـوـعـلـ وـوفـائـهـ وـحـاتـمـ وجـودـهـ ومـعـنـ بنـ زـائـدـةـ وـحـلـمـهـ وـقـسـ وـفـصـاحـتـهـ ، ثمـ يـنـتـقـلـ فـيـنـظـمـ مشـاهـيرـ الـخـيلـ عـنـدهـمـ عـلـىـ هـذـهـ الشـاكـلـةـ :

أشـهـرـاـ خـيـلـ العـربـ المشـهـرـ  
وـدـاحـسـ مـنـهـنـ وـالـغـبـرـاءـ  
كـذـلـكـ الـخـطـارـ وـالـخـنـفـاءـ  
وـأـعـوجـ لـاحـقـ سـكـابـ  
كـذـلـكـ الـعـبـيـدـ وـالـعـقـابـ  
كـذـاـ الـعـصـاـ وـأـمـهـاـ الـعـصـيـةـ  
وـكـمـ لـهـ أـمـاـ وـكـمـ بـُـنـيـةـ

وكلـ فـرـسـ مـنـ هـذـهـ الـأـفـارـاسـ كـانـتـ مـلـكـاـ لـبـطـلـ أوـ شـيخـ مـنـ شـيوـخـ  
الـعـربـ أوـ مـلـكـ مـنـ مـلـوكـهـ ، وـاستـقـصـاـهـاـ الـيـازـجـيـ استـقـصـاءـ . وـلمـ يـلـبـثـ أنـ أـنـشـدـ  
أـبـيـاتـ الـعـربـ مـنـ مـثـلـ الـخـبـاءـ وـالـخـيـمةـ وـالـفـسـطـاطـ ، كـماـ أـنـشـدـ أـلـوـانـ طـاعـمـهـ وـأـسـماءـ  
آـنـيـتـهـ . وـلمـ يـكـتـفـ بـذـلـكـ ، فـقـدـ أـنـشـدـ أـيـضـاـ أـلـلـامـ الـمـيـسـرـ وـهـيـ الـقـدـاحـ الـىـ  
كـانـواـ يـتـخـذـونـهـاـ لـلـقـمـارـ ، يـقـولـ : ١

فـَلـَدـ وـتـَوـأـمـ رـقـبـ نـافـسـ  
كـذـلـكـ الـمـسـبـلـ وـالـمـعـاـتـيـ  
ثـمـ السـفـيـحـ وـالـمـسـيـحـ الـوـاغـدـ

ومـعـروـفـ أـنـهـ عـشـرـ قـدـاحـ وـقـدـ أـسـمـاـهـ كـلـهـاـ ، وـأـشـارـ إـلـىـ أـنـ الـثـلـاثـةـ الـأـخـيـرـةـ  
لـاـ يـكـونـ لـهـ حـظـ مـقـسـومـ ، وـالـسـبـعـةـ الـأـوـلـىـ يـكـونـ لـهـ نـصـيـبـ مـعـلـومـ ، كـماـ أـشـارـ إـلـىـ  
تـرـتـيـبـ الـرـوـاـةـ لـلـنـافـسـ وـأـنـ مـنـهـمـ مـنـ قـالـ هـوـ الـرـابـعـ وـمـنـهـمـ مـنـ قـالـ بـلـ هـوـ الـخـامـسـ .  
وـغـضـىـ إـلـىـ الـمـقـامـ التـاسـعـ عـشـرـ فـنـجـدـهـ يـنـظـمـ أـيـامـ الـعـربـ وـحـرـوـبـهـمـ فـيـ  
الـخـاهـلـيـةـ ، ثـمـ تـنـقـدـمـ إـلـىـ الـمـقـامـ السـادـسـ وـالـثـلـاثـيـنـ ، وـهـيـ الـمـسـاـةـ بـالـطـائـيـةـ فـنـجـدـ  
حـاسـتـهـ الـلـغـوـيـةـ تـعودـ إـلـيـهـ ، وـيـعـودـ مـعـهـ نـظـمـ الـأـسـمـاءـ الـمـتـشـابـهـ ، وـهـوـ يـبـدـأـ ذـلـكـ

بعْرَض أَسْمَاءِ الْجَمَاعَاتِ فِي الْإِنْسَانِ وَالْحَيْوَانِ يَقُولُ :

زُجْلَةُ<sup>(١)</sup> نَاسٌ حَاصِبُ الرَّجَالَةِ وَهَكُذا كَوْكَبَةُ الْحَيَّالَةِ  
رَهْطُ رِجَالٍ لُسْمَةُ النِّسَاءِ رَعِيلُ خَيْلٍ وَقَطْبَعُ الشَّاءِ  
وَرَبِّبُ الْمَهَائِمَ<sup>(٢)</sup> صِوَارُ الْبَقَرِ وَصَرْمَةُ مَعْزٍ عَانَةُ مِنْ حُمْسِرِ  
وَصَرْمَةُ مِنْ إِبْلٍ وَعَرَجَلَةُ  
خَيْطُ النَّعَامِ وَمِنْ الْجَرَادِ  
وَهَكُذا عَصَابَةُ الطَّيْرِ وَرَدٌّ وَخَشْرَمُ النَّحْنُولِ تَنَمِّيَ الْعَدَدُ

وَيَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ إِلَى نَظَمِ عَدَدِ الْخَيْلِ وَمَرَاتِبِهِ مِنْ مَثَلِ الْخَبَبِ وَالتَّقْرِيبِ  
وَالْإِحْضَارِ ، ثُمَّ يَنْظُمُ مَرَاتِبَ سِيرِ الْجَمَالِ مِنْ مَثَلِ الدَّبِيبِ وَالدَّمِيلِ وَالرَّسْمِ وَالْوَخْدِ  
وَالْإِقَالِ . ثُمَّ يَتَنَقَّلُ فَيَنْظُمُ أَنْوَاعَ الْمَشَى لِلْإِنْسَانِ وَالْحَيْوَانِ ، فَالصَّبِيُّ يَدْرُجُ وَالشَّيْخُ  
يَدْلِفُ وَالْفَتَى يَخْطُرُ وَالْمَرْأَةُ تَمْشِي وَالرَّجُلُ يَسْعَى وَالرَّضِيعُ يَجْبُو وَالْفَرَسُ يَجْرِي وَالْغَرَابُ  
يَسْجُلُ وَالنَّعَامُ يَهْدِجُ ، ثُمَّ يَذَكِّرُ تَرْتِيبَ جَمَاعَاتِ الْعَسْكَرِ ، فَيَنْشُدُ :  
أَقْلُ جَمَعُ الْعَسْكَرِ الْجَرَيْدَهُ وَبَعْدَهَا السَّرَّيَهُ الْمَرَزِيدَهُ  
وَفَوقَهَا كَتَبَيَهُ تَمِيسُ فَالْجَيْشُ فَالْفَيْلَمَقُ فَالْحَمِيسُ

ثُمَّ يَنْشُدُ مَرَاتِبَ النَّخْيَلِ مِنْ مَثَلِ الْفَسَسِيَّةِ لِصَغْرِيِ النَّخْلِ ، ثُمَّ الْقَاعِدَةُ  
وَالْعَيْدَانَةُ ، ثُمَّ الْبَاسَقَةُ ، ثُمَّ السَّحْوَقُ الشَّاهِقَةُ . وَلَا يَكْتُنِي بِذَلِكَ بَلْ يَنْظُمُ أَيْضًا  
ثُمَّ النَّخْلُ وَأَسْمَاءُهُ عَلَى التَّرْتِيبِ ، فَأَوْلَهُ طَلَمْعُ ثُمَّ سَيَابُ فَخَلَالُ فَبَسَغُو فَبُسَرُ .

وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ تَتَحَوَّلُ الْمَقَامَةُ إِلَى مَا يَشْبَهُ مَقَامَنَا مِنْ مَتَوْنِ اللُّغَةِ ، وَهُوَ مَنْ عَلَى  
الطَّرِيقَةِ الْمُعْرُوفَةِ عِنْدِ الْعَرَبِ إِذْ حَوَّلُوا مَعَارِفَهُمْ إِلَى أَرَاجِيزِ ، وَكَانَ لِلْيَازِجِيِّ أَرَاجِيزِ  
مُخْتَلِفةً . وَهُوَ يَطْبَقُ هَذَا اللَّوْنَ مِنْ نَظَمِ الْمَعَارِفِ فِي مَقَامَاتِهِ ، فَإِذَا جَوَابُ مِنْهَا  
تَتَحَوَّلُ إِلَى مَتَوْنِ لِلْحَفْظِ وَالتَّسْمِيعِ .

وَلَا يَكْتُنِي بِمَا قَدِمَ فِي الْمَقَامَتَيِنِ السَّابِقَتَيِنِ مِنْ مَثَلِ هَذِهِ الْمَعَارِفِ ، فَتَحَنَّ نَرَاهُ

(١) وَاضْعَفَ أَنَّهُ يَجْعَلُ الْجَمَاعَةَ مِنَ النَّاسِ عَامَةً زَجْلَةً ، أَمَّا مِنَ الرَّجَالَةِ فَهُوَ حَاصِبٌ وَأَمَّا مِنَ الْحَيَّالَةِ فَكَوْكَبَةٌ ، وَهَلْمُ جَرَا .

(٢) المَهَا : بَقْرُ الْوَحْشِ .

في المقامـة الثامنة والثلاثـين ينظم مراحل الحياة الخاصة بالرجل ، فهو جنـين في الحشـأ ، ثم طـفل ثم صـبـى ثم غـلام ثم يافـع ثم فـتـى . وكلـذلك ينظم مراحل الصـبغـات الخاصة بالمرأة وما يخصـها دون الرجل فـهي كـاعـب وـناـهـد وـنـصـف وـكـهـلـة وـعـانـس . وينظم أشكـال الإـشارـة فـالإـنسـان يـشـير بـالـيـد وـيـوـيـنـيـ بالـرـأس وـيـوـمـضـ بالـلـفـنـ وـيـغـمـزـ بالـحـاجـب وـيـرـمـ بالـشـفـاه وـيـلـسـعـ بالـثـوـب وـيـلـوـحـ بالـكـمـ . وـيـتـقـلـ إـلـى تـرـتـيبـ المـطـرـ ، فـأـوـاهـ الـطـلـ وـبـعـدهـ الرـذـآذـ ثـمـ النـضـجـ ثـمـ الـهـطـلـ ثـمـ الـوـابـلـ الـمـنـهـلـ . أـمـا الـأـنـهـارـ فـأـصـغـرـها الـجـدـولـ ثـمـ السـرـىـ ثـمـ الـجـعـفـرـ . وـأـمـا الـجـبـالـ فـأـصـغـرـها النـبـكـةـ ثـمـ الـرـابـيـةـ ثـمـ الـأـكـةـ فـالـزـبـيـةـ فـالـنـيـجـوـةـ فـالـقـفـ فـالـهـضـبـةـ ، وـأـمـا الـغـبـارـ فـالـخـاصـ مـنـهـ بـالـحـربـ يـسـمـيـ الـقـسـطـلـ وـأـمـا الـعـيـشـيرـ فـخـاصـ بـغـبـارـ الـأـرـجـلـ ، وـما يـشـيرـهـ الـحـافـرـ يـسـمـيـ نـقـعـاـ ، وـما تـهـيـجـهـ الـرـيـحـ يـسـمـيـ عـجـاجـاـ . وـما يـزـالـ حـتـىـ يـذـكـرـ أـنـوـاعـ الـخـيـوطـ ، فـلـلـخـرـزـ السـلـكـ وـلـلـجـوـهـرـ السـمـطـ وـلـلـخـلـطـ إـلـيـ الـبـرـ النـصـاحـ وـلـلـبـنـاءـ الـرـيـحـ . وـنـمـضـ إـلـىـ المـقـامـ الـحـادـيـةـ وـالـأـرـبـعـينـ الـمـسـمـاـةـ بـالـتـهـاـمـيـةـ فـنـجـدـهـ يـنـظـمـ الـأـصـوـاتـ إـلـىـ وـضـعـتـهاـ الـلـغـةـ لـخـتـلـفـ الـأـشـيـاءـ ، وـهـوـ يـسـتـهـلـ ذـلـكـ بـقـوـاهـ :

هـزـيـزـ رـيـحـ وـحـفـيفـ الشـجـرـ هـزـيمـ رـعـدـ وـدـوـيـ الـمـطـرـ  
وـسـوـاسـ حـلـيـةـ صـلـيلـ التـصـلـ قـلـقـلـةـ المـفـتـاحـ ضـمـنـ الـقـفـلـ  
وـيـسـتـرـ فـيـذـكـرـ كـلـ ما يـمـكـنـ أـنـ يـمـرـ بـالـخـاطـرـ مـنـ مـثـلـ زـنـةـ الـقـوـسـ وـصـرـيرـ  
الـأـقـلـامـ وـعـزـيـفـ الـجـنـ وـزـفـرـ النـارـ وـنـغـمـ الـمـغـنـيـ وـغـطـيـطـ النـائـمـ وـعـوـيـلـ الـبـاكـيـ وـقـهـقـهـةـ  
الـضـاحـكـ وـإـهـالـ الـمـلـاـوـدـ وـحـشـرـجـةـ الـمـخـتـضـ وـحـنـينـ النـوقـ وـصـهـيـلـ الـخـيلـ وـشـحـيـجـ  
الـبـغـلـ وـنـهـيـقـ الـحـدـارـ وـخـوـارـ الـعـجـلـ وـهـدـيـرـ الـجـمـالـ وـثـغـاءـ الشـاءـ وـخـرـيرـ الـمـاءـ وـزـبـرـ  
الـأـسـدـ وـضـبـاحـ الـشـلـبـ وـبـغـامـ الـظـبـيـ وـعـوـاءـ الذـئـبـ وـمـوـاءـ الـقـطـ وـنـسـبـاحـ الـكـلـبـ  
وـنـعـيـبـ الـغـرـابـ وـهـدـيـلـ الـحـمـامـ وـسـجـعـ الـقـدـرـىـ وـشـقـشـقـةـ الـعـصـفـورـ وـزـقـاءـ الـدـيـكـ  
وـفـحـيـجـ الـأـفـعـيـ وـطـنـينـ الـذـبـابـ .

أـرـأـيـتـ كـيـفـ تـتـحـولـ المـقـامـ إـلـىـ مـنـ لـغـوـيـ قـصـيرـ ، يـجـدـ فـيـهـ الـطـلـابـ وـسـيـلـهـمـ  
إـلـىـ حـفـظـ مـوـضـوعـ مـهـمـ مـنـ الـمـوـضـوعـاتـ الـلـغـوـيـةـ ؟ وـإـنـ فـذـلـكـ مـا يـدـلـ عـلـىـ أـنـ

اليازجي نسى مهمة المقامات الأولى وغايتها من عرض الأساليب الأدبية ، وكأنما خُيُلَ إِلَيْهَا الْوَاحِدُ لغوية للحفظ والتسميع . ولعل ذلك ما جعله يعرض علينا في المقامات الخامسة والأربعين الكلمات التي تتنابها الظاء والضاد من مثل الظهر والضهر والقيظ والقيض والظبَّ والضبَّ . أما المقامات السابعة والأربعون فقد عرض فيها لمراتب أسماء الخيل وألوانها من مثل أدهم وأبيض وأحمر وأشقر وأبرش وأبقع وأشهب وكمة وأحْسُوَى ، حتى إذا استوف ذلك في الخيل ذهب يأتي بنظيره في الحال .

ونرا في المقامات التاسعة والأربعين المعروفة باللبنانية ينظم أسماء القططُ فالجزَّ للصروف والخُصْدُ للنبات اليابس والجَدْعُ للأنف والقصَّ للشعر والتقليم للظفر والقطَّ للقلم . ثم يذكر أسماء الكَسْر فالشَّجَّ للرأس والهشم للأنف والهشم للسنَّ والقصَّ للظهر والخطم للعظم والهَصْرُ للغضن . وينظم الحصصُ والقطعُ ، فالقطعة من الخبز كسرة ، ومن الكبد فلذة ، ومن الشراب صباية ، ومن النار جادوة ، ومن الشَّعَر خصلة ، ومن الثوب خِرْقة .

ونجد ألوانًا من هذه الطُّرُف اللغوية في المقامات الثانية والخمسين والسابعة والخمسين والثامنة والخمسين . وهو يُخْصى ذلك ويستقصيه في أبيات من الرجز ، بالضبط كما كان يصنع أصحاب الشعر التعليمي . فهو معلم ، وهو لا يعلم اللغة وحدها بل يعلم طرقًا من التاريخ ومن ألعاب الحريري البلاغية . وليس ذلك حسب ، فهو يعلم أيضًا العروض ، وقد خصَّه بالمقامات الحادية عشرة المسماة بالعراقية ، إذ ثُرَ فيها مصطلحاته وأوزانه ، وأنقاب قوافيه شعرًا ورجًا . ولا يكتفى بكل ذلك ، فلا يزال يرى أن تكون مقاماته من القوة والمتانة بحيث تجمع في جَعْبَتها أكثر ما يمكن من معارف ، ولعله من أجل ذلك خصَّ الْطَّبَّ كما كان يعرف في عصورنا الوسطى بمقامة ، هي المقامات الثلاثون المسماة بالطبية ، كما خصَّ الفلك بمقامة الثامنة والعشرين وأسماؤها الفلكية ، وفيها نراه ينظم بروج السماء ، يقول :

من البروج في السماء الحمراء  
تنزل فيه الشمس إذ تعتلد  
والثور والجوزاء نعم المنزلة  
وسرطان أسد وسبيله  
كذلك الميزان ثم العقرب  
ثم ينظم منازل القمر من مثل الثريا والدبران والشتراء والسماء وسعد السعد  
وسعاد الأخبية حتى إذا أكمل ذلك انتقل ينظم لياليه المسماة وطالع أضواهه وغوارب  
أنوائه وأمطاره وهو في ذلك كله يستخدم الرجز كأنه السهل الذي لا ينقطع .  
ولا ريب في أن هذا الباحث في المقامات اليازجية يدل على براعة صاحبها ،  
غير أنها براعة لغوية أو علمية ، فنصبح وقد انحرفنا عن رياض الأدب والفن ،  
إلى وهاد اللغة والعلم الجافة ، التي قلما نجد فيها روحًا أو ريحانا .

وقد يكون اليازجي أندفع في ذلك بحكم حبه للعرب ، إذ كان يتغصب لهم  
تعصبيًا شديداً ، وقد مدحهم وأشاد بهم في غير مقامة ، وأبى أن يتعلم لغة  
أجنبية ، وأن يتشفق بالآداب الأوروبية ، واكتفى كما هو واضح في مقاماته  
بالثقافة والأداب العربية الخالصة . ثم انطلق يختذل على أمثلة القوم ، ومثال  
الحريري خاصة ، متفاعلا مع ما خلّفوه من تاريخ وأمثال ولغة وغير تاريخ  
وأمثال ولغة ، كأنه يراهم النماذج التي لا تجارى ولا تبارى حتى في ثقافتهم  
ومعاراتهم .

على أنه ينبغي أن لا يظن القارئ أن اليازجي بنى مقاماته كلها من هذه  
المواد التي صورناها ، فيبين مقاماته مقامات خفيفة ، ليس فيها كل هذه الأدغال  
والأعشاب التي رأيناها حتى الآن . ونحن نعرض نموذجًا طريفاً من نماذجه ،  
وهو المقامة الرابعة عشرة المسماة بالهزلية ، ليتوضّح للقارئ من جميع جوانبه ،  
يقول :

« حكى سهيل بن عبيادة ، قال : كان لي زوجة صناع اليدين ، كريمة  
النبيعتين <sup>(١)</sup> ، فحسدتهن عليها المتنون ، وخانى فيها الدهر الحائرون ، فلبثتُ

(١) النبعتين : الأب والأم .

بعدها طويلاً ، أردد زفة وعويلاً ، وأنوح بُكْرَةً وأصيلاً ، حتى حال<sup>(١)</sup>  
عليها الحول ، وآلت الفريضة إلى العَوْلُ<sup>(٢)</sup> ، فناجتني الحواباء<sup>(٣)</sup> ، أن  
أُستبدل ما طاب لي من النساء . ولما لم أجده في الحى ، من تروق بعيداً ، أزمعت  
الاغتراب ، وبكَرْت بُكُورَ الغراب ، فَهَمَّا لَجِست<sup>(٤)</sup> سحابة النهار على  
هَمَّاسَعَة<sup>(٥)</sup> عُبْرٍ<sup>(٦)</sup> أسفار ، حتى إذا جُنِحَ الظلام رفف ، نزلت بقاع  
صَفَصَفَ<sup>(٧)</sup> ، في خلال نَفَنَفَ<sup>(٨)</sup> . فبينما أقيمتُ وسادى ، وتلقى ماء  
زادى ، سمعت غطيطاً<sup>(٩)</sup> البعير ، وزفرات تصاعد كالزفير<sup>(١١)</sup> ،  
فجتحتُ عن القدس<sup>(١٢)</sup> إلى السمر ، وأخذت لنفسى الحذر ، ولبشتُ أتنكبَ<sup>\*</sup>  
الغُصْنُ<sup>(١٣)</sup> ، وأقلبَ طَرْفِي بين السماء والأرض ، وإذا جارية قد تنهَّدت ،  
ثم أنشدت :

هل من سبيلٍ لي إلى العَتاقِ<sup>(١٤)</sup>  
من رِقٍ ظُلْمٌ أو إلى الإباقِ<sup>(١٥)</sup>  
ما زلت من ذلك في وثاقِ<sup>(١٦)</sup>  
تکاد روحي تبلغ الترافقِ<sup>(١٧)</sup>  
حتى إذا امتدَّتْ دُجَى الأغْسَاقِ<sup>(١٨)</sup>  
واهي القُوَى مُسْهِّلِك الصَّفَاقِ<sup>(١٩)</sup>

- (١) حال : أى . (٢) المول عند الفقهاء : هو أن الفروض الخاصة بالورثة تزيد ، فيقل نصيب الوارث . كنى بذلك عن زيادة مدة البكاء على القدر المفروض . (٣) الحواباء : صوت البعير من خياشيم . (٤) هلح : أسرع في السير . (٥) هلمة : ناقة سريعة . (٦) عبر أسفار : معدودة على السفر . (٧) صفصاف : مستوى . (٨) نففف : هوة بين جبلين . (٩) الغطيط : صوت النائم . (١٠) الأطيط : صوت البعير من خياشيم . (١١) الزفير : صوت هب النار . (١٢) ي يريد : حيث يقع ضوه . (١٣) أتنكب الغمض : أتجنب النوم . (١٤) العتاق : الانتعاق والانفلانق . (١٥) الإباق : الفرار ، ويقال للمهد الرقيق خاصة . (١٦) الترافق : عظام أعلى الصدر . (١٧) الطوى : الجموع . (١٨) أضوى : أغم . (١٩) جو : صفة من الجلوى ، وهو الألم في الصدر . (٢٠) الصفاق : من أغشية البطن .

ذى لحْيَةَ أُثِيثَةَ<sup>(١)</sup> الأعْرَاقِ  
تَلْبَدَتْ طَافِّاً وراء طَاقِ  
مِنْهَا دَثَارُ<sup>(٣)</sup> اللَّيلَ حَتَّى السَّاقِ  
يَجْزُرِي عَلَيْهَا رَمَصَنُ<sup>(٦)</sup> الْآمَاقِ  
حَتَّى تَرَدَّ الْمُسْطَطَ بِالْإِزْلَاقِ  
يَحْتَالُ لِي بِفَرْجَةِ الطَّلاقِ  
وَزَدْتُهُ ثَوْبِي إِلَى النَّطَاقِ

قال سُهَيْل : فَمَا فَتَنْتُ بِفَصَاحَتِهَا ، وَلَمْ أَنْفَتْ إِلَى قَيْدِ مَلَاحَتِهَا ،  
وَقَلَتْ : لَا جُرمَ إِنَّهُ قَدْ خَازَنَنِي<sup>(٧)</sup> التَّوْفِيقَ ، مِنْ مَعَاجِيلِ<sup>(٨)</sup> الظَّرِيقَ ، فَأَنْشَدَتْ :  
الْحَمْدَ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ الشَّفَّاءُ . قَدْ صَادَفَ الْكُجُولُ سَوَادَ الْحَدَقَةِ  
وَاهِمًا لَهْنَى الْطَّرْفَةَ الْمُتَفَقَّهَةَ . إِنَّمَا تَقْنُلُ : وَاقِيَ شَنْ<sup>٢</sup> طَبَقَةَ<sup>(٩)</sup>  
فَإِنَّا أَحَدَنِي<sup>(١٠)</sup> مِنْ هَبَنَقَةَ<sup>(١٠)</sup>

قال : وَإِذَا بِالشَّيْخِ قَدْ اسْتَوَى ، وَقَالَ : مَا ضَلَّ صَاحِبَكُمْ وَمَا غَوَى ،  
وَمَا يَنْطَقُ عَنِ الْهَوَى<sup>(١١)</sup> ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

لَوْتَرَكَ الدَّهْرَ لِكَفَّيْ رَمَقَا<sup>(١٢)</sup>  
قَدْ عَلِمَ اللَّهُ الَّذِي لَهُ الْبَقَّاءَ  
لَمْ تَبْسِقْ إِلَّا رَيْثَ<sup>(١٣)</sup> أَنْ تُطْلَقَأَا  
وَلَمْ تَعْجَدْ عَنْدِي فَؤَادًا شِيشَقَا<sup>(١٤)</sup>  
وَلَا ذَكْرَتْ جِيدَهَا الْمَطْوَقَا<sup>(١٤)</sup>  
وَلَا سَوَادَ عَيْنَهَا ذَاتَ الرَّقَّى<sup>(١٥)</sup>

- 
- (١) أُثِيثَةُ : كَثَةُ وَلْتَفَةٍ . (٢) مَرْبِضُ : مَأْوَى . (٣) دَثَارُ : غَطَاءُ .  
(٤) الظَّلَةُ : مَا يَسْتَظِلُ بِهِ مِنْ الشَّجَرِ وَغَيْرِهِ . (٥) الرَّوَاقُ : السَّقْفُ فِي مَقْدِمِ الْبَيْتِ.  
(٦) الرَّمَصَنُ : مَا يَسْلِي مِنِ الْعَيْنِ الْمَرِيْضَةِ . (٧) يَقَالُ : خَازَنَةُ : إِذَا أَخْذَ كُلَّ مِنْهَا  
فِي طَرِيقٍ ثُمَّ تَلَاقَيَا . (٨) مَعَاجِيلُ : مُخْتَصَرَاتٌ . (٩) مِثْلُ الشَّيْئَيْنِ أَوِ الشَّخْصَيْنِ  
يَتَطَابِقَانِ . (١٠) هَبَنَقَةُ : عَرَبِيٌّ قَيْمٌ يَصْرُبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْحَمْنَ . (١١) الْبَرِيقُ هَنَا : الْفَضْلَةُ مِنِ الْمَالِ .  
(١٢) رَيْثُ : زَمْنٌ . (١٤) الْيَقَقُ : الشَّدِيدُ الْبَيَاضُ . (١٥) الْطَّلَقُ : الْمَشْرُقُ .  
(١٣) رَيْثُ : زَمْنٌ .

لَكُنْ هَا عَلَىٰ مِهْرٍ سَبِقَاهَا  
فَإِنَّمَا إِلَّا إِنْسَانٌ زَوْجًا خُلُقًا  
طَلَقَتْهَا وَالصِّبْعُ لَمْ يَسْبِقْهَا<sup>(١)</sup>  
لَا عِيشَ لِلزَّوْجِينَ لَمْ يَسْتَقِيْهَا  
وَمِنْ تِرَاهُ مُعْرِضًا قَدْ وَئِقَاهَا<sup>(٢)</sup>  
بِالْهَجْرِ فَاهْجُرُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ<sup>(٣)</sup>

قال : فاستغزَّتِي أبياتُ الشَّيخِ فَرَحًا ، حَتَّى كَدَتْ أَصْفَقَ مَرْحَانًا ، وَلَمْ  
أَتْمَالِكْ أَنْ دَلَفَتُ<sup>(٤)</sup> إِلَيْهِ دَلْفَةً مَّنْ تَيَّمَّنَ<sup>(٥)</sup> ، وَقَلْتَ : حَسَيْنَ اللَّهُ الشَّيْخُ  
فَمَنْ أَنْتَ وَمَنْ<sup>(٦)</sup> ؟ قَالَ : أَنَا الْمَبَارِكُ بْنُ رَسْحَانَ ، مِنْ بَطُونِ قَمَاطَانَ ، وَإِنِّي  
لِأَرَى الْفَتَاهَ قَدْ شَغَفَتْكَ حُبْتَاهَا ، وَخَلَبَتْ مِنْكَ لُبْتَاهَا ، فَإِنْ كُنْتَ تَمْلِكَ  
النَّقْدَيْنَ<sup>(٧)</sup> ، فَابْدُلْ لِلْجَيَّانَ<sup>(٨)</sup> ، وَاغْتَسِنْ قُرَّةَ الْعَيْنِ .

قال : فَسَهَّلَ عَلَىٰ الْوَاجِدِ بَذَلَ الْجِدَاهَ<sup>(٩)</sup> ، وَنَفَحَتْهُ<sup>(١٠)</sup> بِمَا مَعَى حَتَّىٰ  
أَفْعَمْ رُدْنَهُ<sup>(١١)</sup> وَيَدَهُ ، فَأَشَهَدُ<sup>(١٢)</sup> عَلَيْهِ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ الْمُقْرَبَيْنَ ، وَقَالَ لِي : بِالرَّفَاءِ<sup>(١٣)</sup>  
وَالْبَيْنِ . فَلَمَّا طَرَحَتِ النَّقْدَ ، وَاسْتَبَحَتِ الْعَقْدَ<sup>(١٤)</sup> ، أَرْدَتُ أَنْ أَتَحَوَّلَ بِأَهْلِي ،  
إِلَى رَحْمَلِي ، فَقَالَ : حَاشَا لَكَ أَنْ تَرْكَنِي الْلَّيْلَةَ سَمِيرَ الْفَرَقَدَيْنَ<sup>(١٥)</sup> ، وَلَكِنْ غَدَّا  
تَذَهَّبُ أَنْتَ بِالْعَرْوَسِ وَأَنَا بِخُفْيَهُ حُسْنَيْنَ<sup>(١٦)</sup> . فَبَتَّ عَنْهُ بِلَيْلَةِ الْمَلْسُوعِ<sup>(١٧)</sup> ،  
وَعَيْنِي لَا يَأْخُذُهَا الْمَهْجُوعُ ، حَتَّىٰ آذَنَ الصِّبْعَ بِالْطَّاَوِعِ . فَتَبَيَّنَتْ ، وَإِذَا الْفَتَاهَ  
لِلْلَّيْلِ الْخَزَامِيَّةِ وَالشَّيْخِ أَبُوهَا مِيمُونَ ، فَقَلْتَ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ<sup>(١٨)</sup> ، مَا أَرَى

(١) غَصَّاً : لِيَلَاءُ . (٢) يَوْمُ الْقِيَامَةِ . (٣) دَلَفَتْ : تَقْدَمَتْ .

(٤) تَيَّمَّنَ : تَبَرَّكَ . (٥) التَّقْدِيْنَ هُنَّا : مَهْرُ الْأَوَّلِ وَالثَّانِيَةِ الَّتِيْنِ أَشَارَ إِلَيْهِمَا فِيهَا سَبْقٌ .

(٦) الْجَيْنِ : الْفَضْلَةِ . (٧) الْجَدَهُ : الْمَالِ . (٨) نَفَحَتْهُ : أُعْطَيْتَهُ .

(٩) رُدْنَهُ : كَهْ . (١٠) يَرِيدُ أَنْ أَشْهِدَهُ عَلَيْهِ بِالْطَّلاقِ . (١١) الرَّفَاءُ : الْاِتْقَاقُ وَالْأَلْفَةُ . (١٢) يَرِيدُ بِالْعَقْدِ عَقْدَ الرِّوَاجِ . (١٣) الْفَرَقَدَانُ : نِجَمَانٌ

يَهْتَدِيُ بِهِمَا ، وَسَمِيرُ الْفَرَقَدَيْنُ : كَنَّا يَةُ عَنْ تَفَرِّدِهِ وَوَحدَتِهِ . (١٤) مَثُلٌ يَضُربُ فِي الرَّجُوعِ

بِالْخَلِيَّةِ . (١٥) الْمَلْسُوعُ : الَّذِي لَسَعَتِ الْحَيَاةُ ، وَالْعَبَارَةُ تَجْرِي عَنْدَ الْعَرَبِ مُجْرِيَ الْمَثَلِ .

(١٦) الْعَبَارَةُ هُنَّا اِقْتَبَاسٌ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، سُورَةُ الْبَقَرَةِ آيَةُ ١٥٦ .

بَعْلَ هَذِهِ الصَّبَيْةَ ، إِلَّا كَعُكَاشٍ<sup>(١)</sup> بَعْلَ طَمَيْةَ ، فَاسْتَغْرِبُ الشَّيْخُ فِي الصَّحْكَ ، ثُمَّ أَنْشَدَ غَيْرَ مَرْتَبٍ :

أَكْهَلًا قَمَتْ فِينَا أُمَّ غُلَامًا  
فَهِيلٌ<sup>(٢)</sup> عَقْدٌ مُلْكَتَ بِهِ الزَّمَاما  
وَقَدْ لَا تَعْدَمُ الْحَسَنَاءُ ذَاماً<sup>(٤)</sup>  
لَقَدْ جَعَلْتُ عَلَى كُلِّ حِرَاما  
وَلَكِنْ لَسْتَ تَعْرِفُهَا تَنَاما  
فَتَعْرِفُهُ كَمْنَ ذَاقَ السَّقَاما  
لَشَدَّةِ فَاقَةِ بَرَاتِ الْعَظَاما  
إِذَا جَاءَتْ وَلَمْ تَجِدِ الطَّعَاما

سَلامًا يَابْنَ عَبَّادِ سَلامًا  
أَرِيَتَكَ<sup>(٢)</sup> ، إِنْ مَلَكْتَ طَلاقَ لِيلِي  
عَرْوَسَ لَيْسَ تَخْلُو مِنْ خَدَاعِ  
فَطَلَّقْتَهَا<sup>(٥)</sup> كَمَا طَلَّقْتَ وَاعْلَمَ  
عَرَفْتَ وَقَائِعَيْ فِي كُلِّ أَرْضٍ  
وَلَسْتَ تَرَى سَقَاماً فِي مَرِيضِ  
رَزَأْتُكَ<sup>(٦)</sup> يَا أَعْزَّ النَّاسِ عَنْدِي  
وَرَبِّ كَسْرَيْمَ أَكْلَتْ بَنِيهَا

قال : فقلت له : شهد الله إنك لأمكراً أهل الخافقين<sup>(٧)</sup> ، وأقدرهم على  
الرَّيْنِ وَالشَّيْنِ ، قال : يا بُنْيَ ! إنَّ الْحَلَةَ<sup>(٨)</sup> تدعُ إِلَى السَّلَةِ<sup>(٩)</sup> ، والصدق  
خَمْرٌ مِزاجها الكذب<sup>(١٠)</sup> ، وَالْجَدُّ ثُوبٌ طرَازُهُ اللَّعْبُ ، وَرُبُّ طُرْفَةِ<sup>(١١)</sup> ، خير  
مِنْ تَحْفَةِ<sup>(١٢)</sup> ، فَإِنْ كُنْتَ قَدْ ظَمِيتَ إِلَى الضَّحْجَلِ<sup>(١٣)</sup> ، وَنَسِيْتَ أَنْ لَا بدْ دُونَ  
الشَّهَدِ مِنْ لَبَرِ النَّحْلِ<sup>(١٤)</sup> ، فَهَبَ المَالَ عَنْدِي كَإِحْدَى الْقُرْضَنِ<sup>(١٥)</sup> ، رِيَئَاهَا  
أَرْزَأَ مِنْ أَسْتَنْصَصِ<sup>(١٦)</sup> لَكَ مِنْهُ الْعِوْضُ . قلت : قَدْ عَلِمْتَ مِنْ عَنْدِهِ عِلْمُ الغَيْبِ

(١) عكاش : جبل في بلاد العرب يقابل أرضاً يقال لها طيبة ، فهما متلازمان ، والكنية واضحة . (٢) أريتك : أريتك : أخبرني . (٣) يلفت صاحبه إلى أن الزوج لا يكون إلا بعقد ، بخلاف العلاق ، فكيف يظن أنها زوجته ، وهو لم يعقد عليها ؟

(٤) مثل مشهور ومعناه واضح . (٥) يقول له ذلك من باب التهكم كأنه أصبح بعلا لها فعلا . (٦) رزأتك : أصبتك بأخذ المال .

(٧) الخافقين : الشرق والغرب . (٨) الحللة : الفقر . (٩) السلة : السرقة .

(١٠) يشير إلى أن الكذب مزاج الصدق كما أن الماء مزاج الخمر . (١١) طرفة : ملحمة .

(١٢) تحفة : هدية . (١٣) الضحل : الماء القليل . يريده به هنا المال الذي أخذته منه .

(١٤) مثل يضرب للدلالة على أن الطرائف لا يوصل إليها إلا بعد طول الجهد .

(١٥) يريده أنه عنده قرض وسلف . (١٦) أستنص : أخذ .

أن هذه الظرفة عندي خير من نخل هَجَرَ<sup>(١)</sup> وعرايس الحصَبَ<sup>(٢)</sup> ، فاعتنقني  
كمن تملق<sup>(٣)</sup> ، وقال كلاماً أفلَسَ من ابن المُذَلَّتَ<sup>(٤)</sup> ، فنَأْحَرَزَ المال  
فعليه الإنفاق يعلق . قلت : أنا وأمال في يديك ، وكلاماً لك وإليك ، قال :  
حَسِيَّاكَ اللَّهُ فَسَنُتَبَدِّلُ الْحَسَمُ بِالْتَّسَمُ<sup>(٥)</sup> ، ولكن اليوم خمر ، وغداً أمر .  
فقضينا يوماً صفا زَلَالَهُ<sup>(٦)</sup> ، وغاب عَذَّالَهُ ، إلى أن آذنت الشمس بالأفول ،  
وهم النجم بالقفول<sup>(٧)</sup> ، فجلستنا على الطعام معاً ، ثم أخذ كلَّ منا مضجعاً ،  
وطفيق الشيخ يُطْرُفنا من القِصَصَ ، بما يُسِّيغُ الغُصَصَ .

وما زال كذلك مذ أطبقت الْحَسُونَةُ<sup>(٨)</sup> على الصَّمِيرَ<sup>(٩)</sup> ، حتى أقبل  
فَحَمَّةُ<sup>(١٠)</sup> بن جُمَيْرَ ، فران<sup>(١١)</sup> على جَفْنِي الكَرَى ، حتى سقطتُ على  
الشَّرَى ، محلول العُرَى ، لا أسمع ولا أرى . فلم أتبه إلا وقد ذرَ<sup>(١٢)</sup> قَرَنُ الغزالَةَ  
الضاحي<sup>(١٣)</sup> ، ولا رجل ولا امرأة في تلك الضواحي ، فاستعدت بالله من مكره  
ونُكَرَه ، وشرتُ إلى الناقة لأتَرْحلَ في إثره ، فلما دَنَوْتُ من قَسْتَبَها<sup>(١٤)</sup> ، إذا  
رقعة قد كتب بها :

قُلْ لِسُهَيْلٍ إِذَا يَهُبُ فِي السَّحَرِ  
اعْذِرْ فَخِيرَ النَّاسِ عَنْدِي مَنْ عَذَرْ  
خُلِقْتُ مَطْبُوعًا عَلَى كَيْدِ الْبَشَرِ  
وَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ تَغْيِيرُ الْفَطَرِ  
وَلَا يُعَانِدُ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرِ  
إِلَّا الَّذِي عَصَى إِلَهَهُ أَوْ كَفَرَ

(١) هجر : بلد بالبحرين . وفي المثل : كسبت بعض القر إلى هجر .

(٢) الحصَبَ : موضع في اليمن يوصف بجمال النساء . (٣) تملق : لاطف .

(٤) عربي قديم لم يكن عنده قوت ليلة ، فصار مثلاً في الإفلات .

(٥) الجمر هنا : كناية عن الشر ، والتمر : كناية عن الحير .

(٦) زَلَالَهُ : ما وَهَ العَذْبُ ، كناية عن طيب اليوم . (٧) القفول : الرجوع .

(٨) الْحَسُونَةُ : اسم الشمس عند الغرب . (٩) الصَّمِيرَ : مكان غروب الشمس .

(١٠) فَحَمَّةُ بن جمير : نصف الليل . (١١) ران : غلب . (١٢) ذر قرن

الغزالَةَ : طلعت الشمس ، وقربيها : أول ما يدُو من طلوعها . (١٣) الضاحي : الظاهر .

(١٤) القتب : الرجل .

وإن تجد سيدةً فيها ندرةً  
وكم حسنةً فيما عبَرَ  
فإن يكن غرَّك منها<sup>(١)</sup> ماظهرَ  
إلا الذي علَّمتُها فيها استئثرَ  
فإن تُرد صاحبَ هذه الغرَّ<sup>(٢)</sup>  
فخذْ أباها إنه أَسْ العِبَرَ

فلمَّا قرأت تلك الرقعة ، عجبت من تلك الرقاعة ، وعلمت أنه لا يحول  
عن هذه الصنعة ولا يترك هذه الصناعة ، فشكَّرت نعمته إذ لم يأخذ الناقة ،  
ورجعت أدراجي لما اعترض دون سقَرِي من الفاقفة<sup>(٣)</sup> .

وأظن في هذه المقاومة ما نطلع منه على جملة الصفات والخصائص التي يتميز  
بها اليازجي ، فاسمها المقاومة الهزليَّة ، ومعنى ذلك أنه حاول أن يجري فيها تياراً من  
الهزل والفكاهة على نحو ما رأينا عند بديع الزمان والحريري .

والقارئ يلاحظ معنا أن فكاهة اليازجي جامدة وأن تيارها لا يتدفق ، فمن  
غير شك هذا التيار أقوى عند بديع الزمان والحريري منه ، وكأن طبيعة اليازجي  
الجلدية حالت بينه وبين روح الدعاية والفكاهة .

فتوقف هذا التيار وتقطَّع وظهر في هذه الصورة التي لا نبالغ إذا قلنا إنها  
صورة جامدة ليس فيها انطلاق ، وليس فيها خفة ولا رشاقة ، وكأنما كان  
اليازجي — ببرَّغم علمه الواسع باللغة والثقافة العربية — يجهل الدروب والمسالك  
التي تؤدي به وبقرائه إلى واحاتٍ بهيجَة .

وإن أساليبه لتدخل في صحاري الجزيرة العربية بأكثر مما تدخل أساليب  
البديع والحريري ، فقاماتها يظهر فيها أثر الحضارة العباسية وما اكتسبه اللغة  
من مقامها في بغداد وعواصم فارس والعراق ، إذ تهدبت ، وتحولت إلى ما يشبه  
التحف الدقيقة ، وأصبحت جزءاً من هذا الفن العربي الفخم الذي نراه في  
واجهات المساجد والبيوتات وسقوفها الأثرية .

(١) منها : أى من المرأة .

(٢) يقول له : إذا أردت أن تأخذ أحداً بما حدث ، فخذني لأنني أنا صاحب هذه الفنون .

وهما يسجعان حقاً ، ويُسجع اليازجيّ ، ولكن السجع عندهما حلية ، أما عند اليازجي فتحس كأنه غريب عن اللغة التي يُعرض فيها ، فهي لغة صحراوية متبدية ، بل لعل بدويّاً صحراويّاً لا يستطيع أن يسلك في أدبه كل ما نجده عند اليازجي من ألفاظ مهجورة .

وقد يكون هذا التبدي أو هذه البداوة أخطر شيء أصاب فن اليازجي لا في المقاومة وحدها ، بل في كل ما خلّفه وترك من آثار نثرية أو شعرية . ونقول أخطر شيء ، لأنه باعد بينه وبين الطبيعة والطبع ، وبالتالي باعد بين عصره وآثاره وأعماله ، فإن من عاشوا معه لم يجدوا في فنه مرآة لحياتهم ، وإنما وجوده مرآة لغيرهم ، وهي مرآة تعمق في القدم حتى تصل إلى العصر الباخلي بأمثاله الغريبة وألفاظه المهملة .

وهو في هذا يقترب من ذوق أبي العلاء المعرّى في ثراه ، إذ اتّخذه وسيلة لإظهار معلوماته ومحفوظاته اللغوية . ولكن أبي العلاء استعان بالفکر والفلسفة وما اشتهر به من التعمق في الآراء ، فلم تَبْدِ عيوب هذه الطريقة واضحة كما بدت عند اليازجي ، لأن أبي العلاء سرّها بالفکر الدقيق العميق ، ولم تكن للإليازجي فلسنته ولا أفكاره .

فخرجت مقامته مهللة النسيج ، وهو نسيج بدوي ، لم تتدخل فيه يد الحضارة إلا قليلاً ، على الرغم من أنه استخدم السجع ووشّى ألفاظه بألوان البديع . ولكن هذا كله عنده يأخذ شكل طلاء خارجي ، وهو طلاء لا يكاد يندمج في أساليبه وعباراته ، لما بين الطلاء والمطلّ من المفارقة والمباعدة والمناقضة أحياناً .

ومعنى ذلك كله أن مقامه الإليازجي لا ترتفع إلى مرافق مقامي البديع والحريري ، لأنه ضلّ اللغة التي يستخدمها ، فلم ينقل من كتب الأدب ، وإنما نقل من المعاجم ، واختار خاصة أن ينقل من مهجورها ووحشيتها وأبدتها . فتخلّفت مقامته ، ولم ينفعه علمه باللغة ، بل لعل هذا العلم هو الذي أضرَ

به ، وكذلك لم تنفعه شاعريته ، بل لعل هذه الشاعرية هي الأخرى أضرت به فإنه استغلها في عمل أراجيزه اللغوية والعلمية التي تحدثنا عنها طويلاً .

وبذلك أصبحت صحف مقامته أشبه ما تكون بصحف الأدب التعليمي ، فهو يسلك فيها أوابد الكلمات منشورة ومنظومة ، وهو يكثر من ذلك حتى يملّ قارئه ، لكتّة ما يتعرضه من هذه الصخور .

وقد تكون هذه الصورة التي انتهت إليها المقاومة عنده هي السبب الحقيقى في أن أدباءنا المحدثين نفروا من الحرّى والسبّق في هذا المضار ، كأنهم وجدوه لا يلائم الذوق الحديث . وإننا لنأمل أن يجد هذا الفن من الشباب مَنْ يعيد إليه الحياة ، ومن يهب له حيوية خصبة ، لا في إطاره السابق ، بل في إطار جديد ، لا يرتبط بالموضوع البسيط القديم ولا بأبطاله الشحاذين ، وإنما يرتبط بحياتنا الاجتماعية الحديثة وما بها من لوازع السخرية في الكسلِ والماوف .



# فهرست

## الصفحة

٦ - ٥ . . . .	مقدمة
١٢ - ٧ . . . .	معنى المقامة
٧ . . . . .	١ - المعنى اللغوي
٨ . . . . .	٢ - المعنى الاصطلاحي
٩ . . . . .	٣ - خصائص وصفات
١٠ . . . . .	٤ - في الآداب العالمية
٤٣ - ٤٣ . . . .	نشأة المقامة عند بديع الزمان
١٣ . . . . .	١ - بديع الزمان
١٦ . . . . .	٢ - تأليف بديع الزمان لمقامته
٢٤ . . . . .	٣ - الموضوع
٣٢ . . . . .	٤ - الأسلوب
٧٥ - ٤٤ . . . .	مقامة الحريري
٤٤ . . . . .	١ - الحريري
٤٧ . . . . .	٢ - تأليف الحريري لمقامته
٥٤ . . . . .	٣ - الموضوع
٦٤ . . . . .	٤ - الأسلوب
١٠٢ - ٧٦ . . . .	مقامات مختلفة
٧٦ . . . . .	١ - على مر التاريخ
٧٩ . . . . .	٢ - مقامة اليازجي
٨٣ . . . . .	٣ - خصائص وصفات في المقامة اليازجية



تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية  
تحت رقم ١٩٧٣/٣٠٦٧

مطابع دار المعارف بمصر  
سنة ١٩٧٣